

زاد المسير في علم التفسير

سورة الإسراء

[فصل] فصل في نزولها [فصل]

هي مكة في قول الجماعة، إلا أن بعضهم يقول: فيها مدني، فروي عن ابن عباس أنه قال: هي مكة إلا ثمان آيات: من قوله: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ} إلى قوله: {تَصِيرًا} [الإسراء: 73-75]، وهذا قول قتادة. وقال مقاتل: فيها من المدني: {وَقَالَ رَبُّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ} [الإسراء: 80] وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ} [الإسراء: 107] وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ أَخَاطَ بِالنَّاسِ} [الإسراء: 60] وقوله: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ} [الإسراء: 73] وقوله: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ} [الإسراء: 76] وقوله: {وَلَوْ * لَا أَنْفِصَامَ * تَبَنَّاكَ} والتي تليها [الإسراء: 74-75].

بسم الله الرحمن الرحيم

{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْأَيْتَانِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}

قوله تعالى: {سُبْحَانَ} روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن تفسير: «سبحان الله»، فقال: «تنزيه لله عن كل سوء»، وقد ذكرنا هذا المعنى في [البقرة: 32] قال الزجاج: وأسرى: بمعنى: سير عبده، يقال: أسريت وسيرت: إذا سرت ليلاً. وقد جاءت اللغتان في القرآن. قال الله تعالى: {وَلَيْلٍ إِذَا يَسِرُّ} [الفجر: 4].

وفي معنى التسيح هاهنا قولان.

أحدهما: أن العرب تسيح عند الأمر المعجب، فكأن الله تعالى عجب العباد مما أسدى إلي رسوله من النعمة.

والثاني: أن يكون خرج مخرج الرد عليهم، لأنه لما حدثهم بالإسراء، كذبوه، فيكون المعنى: تنزه الله أن يتخذ رسولا كذابا. ولا خلاف أن المراد بعبده هاهنا: محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي قوله: {مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} قولان.

أحدهما: أنه أسرى به من نفس المسجد، قاله الحسن، وقتاده، ويسنده حديث مالك بن صعصعة، وهو في الصحيحين بينما أنا في الحطيم وربما قال: بعض الرواة: في الحجر.

والثاني: أنه أسرى به من بيت أم هانئ، وهو قول أكثر المفسرين، فعلى هذا يعني بالمسجد الحرام: الحرم. والحرم كله مسجد، ذكره القاضي أبو يعلى وغيره.

فَأَمَّا { لِمَسْجِدٍ أَلْأَقْصَى } فهو بيت المقدس، وقيل له: الأقصى، لبعده المسافة بين المسجدين. ومعنى { بَارَكْنَا حَوْلَهُ } : أن الله أجرى حوله الأنهار، وأنبت الثمار. وقيل: لأنه مقر الأنبياء، ومهبط الملائكة.

واختلف العلماء، هل دخل بيت المقدس، أم لا؟ فروى أبو هريرة أنه دخل بيت المقدس، وصلى فيه بالأنبياء، ثم عُرج به إلى السماء. وقال حذيفة بن اليمان: لم يدخل بيت المقدس ولم يصل فيه، ولا نزل عن البراق حتى عُرج به. فإن قيل: ما معنى قوله: { إِيَّايَ لِمَسْجِدٍ أَلْأَقْصَى } وأنتم تقولون: صعد إلى السماء؟

فالجواب: أن الإسراء كان إلى هنالك، والمعراج كان من هنالك. وقيل: إن الحكمة في ذكر ذلك، أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء في بدء الحديث، لاشتد إنكارهم، فلما أخبر ببيت المقدس، وبأن لهم صدقه فيما أخبرهم به من العلامات الصادقة، واختلف العلماء، هل دخل بيت المقدس، أم لا؟ فروى أبو هريرة أنه دخل بيت المقدس، وصلى فيه بالأنبياء، ثم عُرج به إلى السماء. وقال حذيفة بن اليمان: لم يدخل بيت المقدس ولم يصل فيه، ولا نزل عن البراق حتى عُرج به.

فإن قيل: ما معنى قوله: { إِيَّايَ لِمَسْجِدٍ أَلْأَقْصَى } وأنتم تقولون: صعد إلى السماء؟

فالجواب: أن الإسراء كان إلى هنالك، والمعراج كان من هنالك.

وقيل: إن الحكمة في ذكر ذلك، أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء في بدء الحديث، لاشتد إنكارهم، فلما أخبر ببيت المقدس، وبأن لهم صدقه فيما أخبرهم به من العلامات الصادقة، أخبر بمعراجه.

قوله تعالى: { لِئُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا } يعني: ما رأى، أي: تلك الليلة من العجائب التي أخبر بها الناس. { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ } لمقالة قريش، { أَلْبَصِيرُ } بها. وقد ذكرنا في كتابنا المسمى بـ «الحدائق» أحاديث المعراج، وكرهنا الإطالة هاهنا.

{ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً * ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا }

قوله تعالى: { وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } لما ذكر في الآية الأولى إكرام محمد صلى الله عليه وسلم، ذكر في هذه كرامة موسى. و { الْكِتَابَ } : التوراة. { وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ } أي: دللناهم به على الهدى. { أَلَّا يَتَّخِذُوا } قرأ أبو عمرو: «يتخذوا» بالياء، والمعنى: هديناهم لئلا يتخذوا. وقرأ الباقون بالياء، قال أبو علي: وهو على الانصراف إلى الخطاب بعد الغيبة، مثل { لِحَمْدُ لِلَّهِ } ثم [قال] { إِيَّاكَ تَعْبُدُ } .

قوله تعالى: { وَكَيْلًا } قال مجاهد: شريكاً. وقال الزجاج: رباً. قال ابن الأنباري: وإنما قيل للربِّ: وكيل، لكفايته وقيامه بشأن عياده، من أجل أن الوكيل عند الناس قد عُلم أنه يقوم بشؤون أصحابه، وتفقد أمورهم، فكان الرب وكَيْلاً من هذه الجهة، لا على معنى ارتفاع منزلة الموكل وانحطاط أمر الوكيل.

قوله تعالى: { ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلْنَا } قال مجاهد: هو نداء: يا ذرية من حملنا: قال ابن الأنباري: من قرأ: «ألا تتخذوا» بالتاء، فإنه يقول: بعد الذرية مضمراً حذف اعتماداً على دلالة ما سبق، تلخيصه: يا ذرية من حملنا مع نوح لا تتخذوا وكَيْلاً، ويجوز أن يستغني عن الإضمار بقوله: { إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا } لأنه بمعنى: اشكروني كشكره. ومن قرأ: «لا يتخذوا» بالياء، جعل النداء متصلاً بالخطاب، و«الذرية» تنتصب بالنداء، ويجوز نصبها بالاتخاذ على أنها مفعول ثانٍ، تلخيص الكلام: أن لا يتخذوا ذرية من حملنا مع نوح وكَيْلاً. قال قتادة: الناس كلهم ذُرِّيَّةٌ من أنجى الله في تلك السفينة.

قال العلماء: ووجه الإنعام على الخلق بهذا القول، أنهم كانوا في صلب من نجا.

قوله تعالى: { إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا } قال سلمان الفارسي: كان إذا أكل، قال: «الحمد لله» وإذا شرب قال: «الحمد لله». وقال غيره: كان إذا لبس ثوباً قال: «الحمد لله» فسمّاه الله عبداً شكوراً.

{ وَقَصِينَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي لَيْلٍ لِّتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوجًا كَبِيرًا * فَأَذَا جَاءَ وَعَدُ أُولُهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لِّئَا أُولَىٰ بَاسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا }

قوله تعالى: { وَقَصِينَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ } فيه قولان:

أحدهما: أخبرناهم، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: قضينا عليهم، رواه العوفي عن ابن عباس. وبه قال قتادة، فعلى الأول: تكون «إلى» على أصلها، ويكون الكتاب: التوراة، وعلى الثاني: تكون «إلى» بمعنى «على»، ويكون الكتاب الذكر الأول.

قوله تعالى: { لِّتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ } يعني: أرض مصر { مَرَّتَيْنِ } بالمعاصي ومخالفة التوراة.

وفي مَنْ قتلوه من الأنبياء في الفساد الأول قولان.

أحدهما: زكريا، قاله السدي عن أشياخه. والثاني: شَعِيَا، قاله ابن إسحاق. فأما المقتول من الأنبياء في الفساد الثاني: فهو يحيى بن زكريا. قال مقاتل: كان بين الفسادين مائتا سنة وعشر سنين. فأما السبب في قتلهم زكريا،

فإنهم اتهموه بمريم، وقالوا: منه حملت، فهرب منهم، فأنفتحت له شجرة فدخل فيها وبقي من رذائه هذب، فجاءهم الشيطان فدلهم عليه، فقطعوا الشجرة بالمنشار وهو فيها. وأما السبب في قتلهم «شعياً» فهو أنه قام فيهم برسالة من الله ينهاهم عن المعاصي. وقيل: هو الذي هرب منهم فدخل في الشجرة حتى قطعوه بالمنشار، وإن زكريا مات حتف أنفه، وأما السبب في قتلهم يحيى بن زكريا، ففيه قولان.

أحدهما: أن ملكهم أراد نكاح امرأة لا تحل له، فنهاه عنها يحيى. ثم فيها أربعة أقوال.

أحدها: أنها ابنة أخيه، قاله ابن عباس.

والثاني: ابنته، قاله عبد الله بن الزبير.

والثالث: أنها امرأة أخيه، وكان ذلك، لا يصلح عندهم، قاله الحسين بن علي عليهما السلام.

والرابع: ابنة أمرته، قاله السدي عن أشياخه، وذكر أن السبب في ذلك: أن ملك بني إسرائيل هوي بنت أمرته، فسأل يحيى عن نكاحها، فنهاه، فحنقت أمها على يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها، وعمدت إلى ابنتها فزينتها وأرسلتها إلى الملك حين جلس على شرابه،

وأمرتها أن تسقيه، وأن تعرض له، فإن أرادها على نفسها، أبت حتى يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طسُت، ففعلت ذلك، فقال: ويحك سليمان غير هذا، فقالت: ما أريد إلا هذا، فأمر، فأتي برأسه والرأس يتكلم ويقول: لا تحل لك، لا تحل لك.

والقول الثاني: أن امرأة الملك رأت يحيى عليه السلام وكان قد أعطي حسناً وجمالاً، فأرادته على نفسه، فأبى، فقالت لابنتها: سلي أباك رأس يحيى، فأعطاها ما سألت، قاله الربيع بن أنس. قال العلماء بالسَّيْر: ما زال دم يحيى يغلي حتى قتل عليه من بني إسرائيل سبعون ألفاً، فسكن، وقيل: لم يسكن حتى جاء قاتله، فقال: أنا قتلته، فقتل، فسكن.

قوله تعالى: {وَلَتَعْلَنَ عُلوًّا كَبِيرًا} أي: لَتَعَظُمَنَّ عَنِ الطَّاعَةِ وَلَتَبُغَنَّ. قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولَهُمَا} أي: عقوبة أولى المرَّتين {بَعَثْنَا} أي: أرسلنا {عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا} وفيهم خمسة أقوال.

أحدها: أنهم جالوت وجنوده، قاله ابن عباس، وقتادة.

والثاني: «بُحْتَنَصَّر»، قاله سعيد بن المسيب، واختاره الفراء، والزجاج.

والثالث: العمالقة، وكانوا كفاراً، قاله الحسن.

والرابع: سنحاريب، قاله سعيد بن جبير.

والخامس: قوم من أهل فارس، قاله مجاهد. وقال ابن زيد: سلب [الله] عليهم سابور ذا الأكتف من ملوك فارس. قوله تعالى: {أُولَىٰ بِأْسِ شَدِيدٍ} أي: ذوي عدد وقوة في القتال. وفي قوله: {فَجَاسُوا خَلَلًا ٱلْدِّيَارِ} ثلاثة أقوال. أحدها: مشوا بين منازلهم، قاله ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال مجاهد: يتجسسون أخبارهم، ولم يكن قتال. وقال الزجاج: طافوا خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه؟ و«الجوس»: طلب الشيء باستقصاء. والثاني: قتلوهم بين بيوتهم، قاله الفراء، وأبو عبيدة. والثالث: عاثوا وأفسدوا، يقال: جاسوا وحاسوا، فهم يجوسون ويحوسون إذا فعلوا ذلك، قاله ابن قتيبة.

فأما الخلال: فهي جمع خَلَل، وهو الانفراج بين الشيئين. وقرأ أبو رزين، والحسن، وابن جبير، وأبو المتوكل: «خَلَلِ الدِّيَارِ» بفتح الخاء واللام من غير ألف. {وَكَانَ وَعَدًّا مَّفْعُولًا} أي: لا يد من كونه. قوله تعالى: {ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ} أي: أظفرناكم بهم. والكرّة، معناها: الرجعة والدولة، وذلك حين قتل داود جالوت وعاد ملكهم إليهم. وحكى الفراء أن رجلاً دعا على «بختنصر»، فقتله الله، وعاد ملكهم إليهم. وقيل: غزوا ملك بابل فأخذوا ما كان في يده من المال والأسرى. قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ تَفِيرًا} أي: أكثر عدداً وأنصاراً منهم، قال ابن قتيبة: التّفير والنافر واحد، كما يقال: قدير وقادر، واصله: مَنْ يَنْفِرُ مَعَ الرَّجُلِ

من عَشيرته وأهل بيته {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا لِمَسْجِدٍ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا* عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدتُّمُ عُدَّتْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا} قوله تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ} أي: وقلنا لكم إن أحسنتم فأطعتم الله {أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ} أي: عاقبة الطاعة لكم {وَإِنْ أَسَأْتُمْ} بالفساد والمعاصي {فَلَهَا} وفيه قولان.

أحدهما: أنه بمعنى: فإليها. والثاني: فعلية. {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ} جواب «فإذا» محذوف، تقديره: فإذا جاء وعد عقوبة المرة الآخرة من إفسادكم، بعثناهم ليسوؤوا وجوهكم، وهذا الفساد الثاني، هو قتلهم يحيى بن زكريا، وقصدتهم قتل «عيسى» فرُفع، وسلط الله عليهم ملوك فارس والروم فقتلوههم وسبّوهم، فذلك قوله: {فَقَوْلُوا وُجُوهَكُمْ}. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «ليسوؤوا» بالياء على الجميع والهمز بين الواوين، والإشارة إلى المبعوثين، وقرأ ابن عامر، وحمزة، وأبو بكر

عن عاصم: «ليسوء وجوهكم» على التوحيد؛ قال أبو علي: فيه وجهان. أحدهما: ليسوء الله عز وجل. والثاني: ليسوء البعث. وقرأ الكسائي: «لنساء» بالنون، وذلك راجع إلى الله تعالى. وفيمن بعث عليهم في المرة الثانية قولان. أحدهما: بختنصر، قاله مجاهد، وقتادة. وكثير من الرواة يأبى هذا القول، ويقولون: كان بين تخريب «بختنصر» بيت المقدس، وبين مولد يحيى بن زكريا زمان طويل.

وفيمن بعث عليهم في المرة الثانية قولان. أحدهما: بختنصر، قاله مجاهد، وقتادة. وكثير من الرواة يأبى هذا القول، ويقولون: كان بين تخريب «بختنصر» بيت المقدس، وبين مولد يحيى بن زكريا زمان طويل.

والثاني: انطياخوس الرومي، قاله مقاتل. ومعنى {قَوْلُوا وُجُوهَكُمْ} أي: ليُدخلوا عليكم الحزن بما يفعلون من قتلكم وسببكم؛ وخصت المساءة بالوجوه، والمراد: أصحاب الوجوه، لما يبدو عليها من أثر الحزن والكآبة. قوله تعالى: {وَلْيَدْخُلُوا لِمَسْجِدَ} يعني: بيت المقدس {كَمَا دَخَلُوهُ} في المرة الأولى {وَلْيَتَّبِعُوا} أي: ليدمروا ويخربوا. قال الزجاج: يقال لكل شيء ينكسر من الزجاج والحديد والذهب: تبر. ومعنى {مَا عَلُوا} أي: ليدمروا في حال علوهم عليكم.

قوله تعالى: {عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ} هذا مما وُعدوا به في التوراة. و«عسى» من الله واجبة، فرحمهم [الله] بعد انتقامه منهم، وعمر بلادهم، وأعاد نعمهم بعد سبعين سنة. {وَإِنْ عُدْتُمْ} إلى معصيتنا {عُدْنَا} إلى عقوبتكم. قال المفسرون: ثم إنهم عادوا إلى المعصية، فبعث الله عليهم ملوكا من ملوك فارس والروم. قال قتادة: ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم محمدا صلى الله عليه وسلم، فهم في عذاب إلى يوم القيامة، فيعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا} فيه قولان. أحدهما: سجن، قاله ابن عباس، والضحاك، وقتادة. وقال مجاهد: يحصرون فيها. وقال أبو عبيدة، وابن قتيبة: محبسا، وقال الزجاج: «حصيرا»: حبسا، أخذ من قولك: حصرت الرجل، إذا حبسته، فهو محصور، وهذا حصيره، أي: محبسه، والحصير: المنسوج، سمي حصيرا، لأنه حصرت طاقاته بعضها مع بعض، ويقال للجنب: حصير، لأن بعض الأضلاع محصور مع بعض. وقال ابن

الأنباري: حصيرا: بمعنى: حاصرة، فصرف من حاصرة الى حصير، كما صرف «مؤلم» إلى أليم.

والثاني: فراشا ومهادا، قاله الحسن. قال أبو عبيدة: ويجوز أن تكون جهنم لهم مهادا بمنزلة الحصير والحصير: البساط الصغير.

{إِنَّ هَذَا لِقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا* وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا }

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لِقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} قال ابن الأنباري:

«التي» وصف للجمع، والمعنى: يهدي إلى الخصال التي هي أقوم الخصال. قال المفسرون: وهي توحيد الله والإيمان به وبرسوله والعمل بطاعته، {وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ} أي: بأن لهم {أَجْرًا} وهو الجنة، وأن {الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} أي: ويبشرهم بالعذاب، لأعدائهم، وذلك أن المؤمنين كانوا في أذى من المشركين، فعجل الله لهم البشري في الدنيا بعقاب الكافرين.

{وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا }

قوله تعالى: {وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ} وذلك أن الإنسان يدعو في حال الضجر والغضب على نفسه وأهله بما لا يحب أن يستجاب له كما يدعو لنفسه بالخير. {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} يعجل بالدعاء بالشر عند الغضب والضجر عجلته بالدعاء بالخير.

وفي المراد بالإنسان هاهنا ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه اسم جنس يراد به الناس، قاله الزجاج وغيره.

والثاني: آدم، فاكتفى بذكره من ذكر ولده، ذكره ابن الأنباري.

والثالث: أنه النضر بن الحارث حين قال: {فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ} [الانفال: 32]، قاله مقاتل. وقال سلمان الفارسي: أول ما خلق الله من آدم رأسه، فجعل ينظر الى جسده كيف يخلق، قال: فبقيت رجلاه، فقال: يا رب عجل، فذلك قوله: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا}.

{وَجَعَلْنَا لَيْلٍ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحْوَتًا آيَةً لَّيْلٍ وَجَعَلْنَا آيَةً لِلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَانُهُ تَفْصِيلًا } قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَيْلٍ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ} أي: علامتين يدلان على قدرة خالقهما. {فَمَحْوَتًا آيَةً لَّيْلٍ} فيه قولان.

أحدهما: أن آية الليل: القمر، ومحوها: ما في بعض القمر من الاسوداد. والى هذا المعنى ذهب علي عليه السلام، وابن عباس في آخرين.

والثاني: آية الليل محيت بالظلمة التي جعلت ملازمة لليل؛ فنسب المحو الى الظلمة إذ كانت تمحو الأنوار وتبطلها، ذكره ابن الأنباري. ويروى أن الشمس والقمر كانا في النور والضوء سواءً، فأرسل الله جبريل فأمر جناحه على وجه القمر وطمس عنه الضوء.

قوله تعالى: { وَجَعَلْنَا آيَةً لِلنَّهَارِ } يعني: الشمس { مُبْصِرَةً } فيه ثلاثة أقوال. أحدها: منيرة، قاله قتادة. قال ابن الأنباري: وإنما صلح وصف الآية بالإبصار على جهة المجاز، كما يقال: لعب الدهر ببني فلان.

والثاني: أن معنى «مبصرة»: مبصراً بها، قاله ابن قتيبة.

والثالث: أن معنى «مبصرة» مُبْصِرَةً، فجرى «مُفْعِلٌ» مجرى «مُفَعَّلٌ»، والمعنى: أنها تُبْصِرُ النَّاسَ، أي: تريهم الأشياء، قاله ابن الأنباري. ومعاني الأقوال تتقارب.

قوله تعالى: { لِيَتَّبِعُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ } أي: لتبصروا كيف تتصرفون في أعمالكم وتطلبون رزقكم بالنهار { وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَاللَّيْلِ مِّنَ النَّهَارِ } ولم يُتَبَّنِ العدد. { وَكُلُّ شَيْءٍ آيَةٌ لِّلَّذِينَ يَدَّبُرُونَهُ } أي: ما يُحْتَاجُ إليه: { فَصَلَّاتُهُ تَفْصِيلًا } بيانه تبيانا لا يلتبس معه بغيره. { وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّرَبِّهِ طَائِرَةٌ } أي: كل إنسان له طائر في عنقه ونُحِرْ لَهُ يَوْمَ لِقَائِهِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * فَرَأَى كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ لِيَوْمٍ عَلَيْكَ حَسِيبًا } قوله تعالى: { وَكُلُّ إِنْسَانٍ } وقرأ ابن أبي عبله «وكل» برفع اللام. وقرأ ابن مسعود، وأبي، والحسن { الرَّمْتُهُ } بياء ساكنة من غير الف. وفي الطائر أربعة أقوال.

أحدها: شقاوته وسعادته، قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال مجاهد: ما من مولود يُولد إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي، أو سعيد.

والثاني: عمله، قاله الفراء، وعن الحسن كالقولين.

والثالث: أنه ما يصيبه، قاله خفيف. وقال أبو عبيدة حظه.

قال ابن قتيبة: والمعنى فيما أرى والله أعلم: أن لكل امرئ حظاً من الخير والشر قد قضاه الله [عليه]، فهو لازمٌ عنقه، والعرب تقول: لكل ما لازم الإنسان: قد لازم عنقه، وهذا لك علي وفي عنقي حتى أخرج منه، وإنما قيل للحظ من الخير والشر: «طائر»، لقول العرب: جرى له الطائر بكذا من الخير، وجرى له الطائر بكذا من الشر، على طريق الفأل والطيرة، فخاطبهم الله بما يستعملون، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر، هو الذي يلزمه أعناقهم.

وقال الأزهري: الأصل في هذا أن الله تعالى لما خلق آدم، علم المطيع من ذريته، والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى سعادة من علمه

مطيعاً، وشقاوة من علمه عاصياً، فصار لكل منهم ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه، فذلك قوله: {إِنْسَانَ أَلْمَمْتُهُ طَيْرَهُ فِي عُقْبِهِ} .
والرابع: أنه ما يَتَطَيَّرُ من مثله من شيء عمله، وذكرُ العنق عبارة عن اللزوم له، كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس، هذا قول الزجاج. وقال ابن الأنباري: الأصل في تسميتهم العمل طائراً، أنهم كانوا يتطيرون من بعض الأعمال.
قوله تعالى: {وَنُحْرُجُ لَهُ} قرأ أبو جعفر: «ويُخْرَجُ» بياءٍ مضمومة وفتح الراء. وقرأ يعقوب، وعبد الوارث: بالياء مفتوحة وضم الراء. وقرأ قتادة، وأبو المتوكل: «ويخرج» بياء مرفوعة وكسر الراء. وقرأ أبو الجوزاء، والأعرج: «وتخرج» بتاء مفتوحة ورفع الراء {يَوْمَ لِقِيَمَةِ كِتَابًا} وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: «كتابٌ» بالرفع، {يَلْقَاهُ} وقرأ ابن عامر، وأبو جعفر: «يُلْقَاهُ» بضم الياء وتشديد القاف. وأمال حمزة، والكسائي القاف. قال المفسرون: هذا كتابه الذي فيه ما عمل. وكان أبو السَّوَّارِ العَدَوِيُّ إذا قرأ هذه الآية قال: نشرتان وطية أمّا ما حبيت يا ابن آدم، فصحيفتك منشورة، فأمل فيها ما شئت، فاذا مُتَّ، طويت، ثم إذا بُعثت، نُشرت.
قوله تعالى {فُرَأ كَتَبَكَ} وقرأ أبو جعفر: «اقرا» بتخفيف الهمزة، وفيه إضمار، تقديره، فيقال له اقرا كتابك. قال الحسن: يقرؤه أمياً كان أو غير أمي، ولقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك.

وفي معنى {حَسِيْبًا} ثلاثة أقوال.

أحدها: محاسبياً. والثاني: شاهداً. والثالث: كافياً، والمعنى: أن الإنسان يُقَوِّضُ إليه حسابه ليعلم عدل الله بين العباد، ويرى وجوب حجة الله عليه، واستحقاقه العقوبة، ويعلم أنه إن دخل الجنة فبفضل الله، لا بعمله، وإن دخل النار فبذنبه. قال ابن الأنباري: وإنما قال: {حَسِيْبًا}، والنفس مؤنثة، لأنه يعني بالنفس: الشخص، أو لأنه لا علامة للتأنيث في لفظ النفس، فشبهت بالسماء والأرض، قال تعالى: {السَّمَاءُ مُنْقَطِرٌ بِهِ} [المزمل 18]، قال الشاعر:

فلا مُرْتَةٌ وَدَقْتُ وَدَقَّتْ وَدَقَّهَا وَلَا أَرْضٌ أَبْقَلُ إِبْقَالِهَا

{مَنْ هَتْدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا}

قوله تعالى: {مَنْ هَتْدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ} أي: له ثواب اهتدائه، وعليه عقاب ضلاله.

قوله تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} أي: نفس وازرة {وَوَزَّرَ أُخْرَى} قال ابن عباس: إن الوليد بن المغيرة قال: اتبعوني وأنا أحمل أوزاركم، فقال الله تعالى: {وَلَا

تَزْرُ وَازْرَهُ وَزَرَ أَخْرَى {، قال أبو عبيدة: والمعنى: ولا تَأْتُمْ آثمة إثم أخري. قال الزجاج: يقال: وَزَرَ يَزِرُ، فهو وازِر، وَزَرَ، وَزَرًا، وَوَزَرًا، وَوَزْرَةً، ومعناه: إثم إثمًا. وفي تأويل هذه الآية وجهان.

أحدهما: أن الآثم لا يؤخذ بذنب غيره.

والثاني: أنه لا ينبغي أن يعمل الإنسان بالإثم، لأن غيره عمّله، كما قال الكفار: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ} [الزخرف 22]. ومعنى {حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا} أي: حتى يُبَيِّنَ ما به نعدّب، وما من أجله ندخل الجنة.

فصل

قال القاضي ابو يعلى: في هذا دليل على أن معرفة الله لا تجب عقلاً، وإنما تجب بالشرع، وهو بعثة الرسل، وأنه لو مات الإنسان قبل ذلك، لم يقطع عليه بالنار. قال: وقيل معناه: أنه لا يعدّب في ما طريقه السمع إلا بقيام حجة السمع من جهة الرسول، ولهذا قالوا: لو أسلم بعض أهل الحرب في دار الحرب ولم يسمع بالصلاة والزكاة ونحوها، لم يلزمه قضاء شيء منها، لأنها لم تلزمه إلا بعد قيام حجة السمع، والأصل فيه قصة أهل قباء حين استداروا الى الكعبة ولم يستأنفوا، ولو أسلم في دار الإسلام ولم يعلم بفرض الصلاة، فالواجب عليه القضاء لأنه قد رأى الناس يصلون في المساجد بأذان وإقامة، وذلك دعاء إليها.

{وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا لِقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ لِقُرُونٍ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}

قوله تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً} في سبب إرادته لذلك قولان. أحدهما: ما سبق لهم في قضائه من الشقاء. والثاني: عنادهم الأنبياء وتكذيبهم إياهم.

قوله تعالى: {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} قرأ الأكثرون: أمرنا مخففة، على وزن فَعَلْنَا، وفيها ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه من الأمر، وفي الكلام إضمار، تقديره: أمرنا مترفيها بالطاعة، ففسقوا، هذا مذهب سعيد بن جبير. قال الزجاج: ومثله في الكلام: أمرتك فعصيتني، فقد علم أن المعصية مخالفة الأمر.

والثاني: كثرنا يقال: أمرت الشيء وأمرته، أي: كثرته، ومنه قولهم: مهرة مأمورة، أي: كثيرة النتاج، يقال: أمر بنو فلان يأمرن أمراً: إذا كثروا، هذا قول أبي عبيدة، وابن قتيبة.

والثالث: أن معنى أمرنا أمرنا، يقال: أمرت الرجل، بمعنى، أمرته، والمعنى: سلطنا مترفيها بالإمارة، ذكره ابن الأنباري. وروى خارجة عن نافع: أمرنا

ممدودة، مثل آمناء، وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير، وهي قراءة ابن عباس، وأبي الدرداء، وأبي رزين، والحسن، والضحاك، ويعقوب. قال ابن قتيبة: وهي اللغة العالية المشهورة، ومعناه: كثرنا، أيضاً. وروى ابن مجاهد أن أبا عمرو قرأ: أمّرتنا مشددة الميم، وهي رواية أبان عن عاصم، وهي قراءة أبي العالية، والنخعي والجحدري. قال ابن قتيبة: المعنى: جعلناهم أمراء. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وابن يعمر: أمّرتنا بفتح الهمزة مكسورة الميم مخففة. فأما المترفون، فهم المتنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش، والمفسرون يقولون: هم الجبارون والمسلطون والملوك، وإنما خص المترفين بالذكر، لأنهم الرؤساء، ومن عداهم تبع لهم.

قوله تعالى: { قَفَسُوا فِيهَا } أي: تمردوا في كفرهم، لأن الفسق في الكفر: الخروج إلى أفحشه. وقد شرحنا معنى الفسق في [البقرة: 26/197].

قوله تعالى: { فَحَقَّ عَلَيْهَا لِقَوْلُ } قال مقاتل: وجب عليها العذاب وقد ذكرنا معنى التدمير في [الاعراف: 137] قوله تعالى: { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ لِقُرُونِ } وهو جمع قرن. وقد ذكرنا اختلاف الناس فيه في [الانعام: 6]، وشرحنا معنى

الخبير والبصير في [البقرة]. قال مقاتل: وهذه الآية تخويف لأهل مكة. { مَّن كَانَ يُرِيدُ لِعَجَلَةٍ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ لِآخِرَةٍ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا }

قوله تعالى: { مَّن كَانَ يُرِيدُ لِعَجَلَةٍ } يعني: من كان يريد بعمله الدنيا، فعبر بالنعى عن الاسم، { عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ } من عرض الدنيا، وقيل: من البسط والتقتير، { لِمَنْ نُرِيدُ } فيه قولان.

أحدهما: لمن نريد هلكته، قاله أبو اسحاق الفزاري.

والثاني: لمن نريد أن نعجل له شيئاً، وفي هذا ذم لمن أراد بعمله الدنيا، وبيان أنه لا ينال مع ما يقصده منها إلا ما قدر له، ثم يدخل النار في الآخرة. وقال ابن جرير: هذه الآية لمن لا يوقن بالمعاد. وقد ذكرنا معنى جهنم في [البقرة: 206] ومعنى يصلها في سورة [النساء: 10]، ومعنى مذموماً مدحوراً في

[الاعراف: 18].

قوله تعالى: ومن { أَرَادَ لِآخِرَةٍ } يعني: الجنة { وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا } أي: عمل لها العمل الذي يصلح لها، وإنما قال: { وَهُوَ مُؤْمِنٌ } لأن الإيمان شرط في صحة الأعمال، { فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا } أي: مقبولاً. وشكر الله عز وجل لهم: ثوابه إياهم، وثناؤه عليهم.

{ كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِالْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا * لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا }

قوله تعالى: { كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ } قال الزجاج: كلاً منصوب ب نمد، هؤلاء بدل من كل، والمعنى: نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك. قال المفسرون: كلا نعطي من الدنيا، البر والفاجر، والعطاء هاهنا: الرزق، والمحظور: الممنوع، والمعنى: أن الرزق يعم المؤمن والكافر، والآخرة للمتقين خاصة. { أَنْظُرْ } يا محمد { كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ } وفيما وفضلوا فيه قولان. أحدهما: الرزق، منهم مقل، ومنهم مكثر.

والثاني: الرزق والعمل، فمنهم موفق لعمل صالح، ومنهم ممنوع من ذلك. قوله تعالى: { لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمعنى عام لجميع المكلفين. والمخذول الذي لا ناصر له، والخذلان: ترك العون. قال مقاتل: نزلت حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملة آباءه.

{ وَقَصَىٰ رَبُّكَ الْأَعْيُنَ وَيُرِي الْمَوْدِيَّةَ وَمَنْ أَعْيَنَ وَإِنْ تَبَيَّنَّا الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ الْأَكْبَرِ إِذْ أَخَذْنَا مِنْهُ الْبَيْعَ بَاطِنًا إِذْ وَضَعُوا يَدَاهُ وَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْقُرْآنَ الْيَقِينَ }
 { وَقَصَىٰ رَبُّكَ الْأَعْيُنَ } قوله تعالى: { وَقَصَىٰ رَبُّكَ الْأَعْيُنَ } روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: أمر ربك. ونقل عنه الضحاك أنه قال: إنما هي ووصى ربك فالتصقت إحدى الواوين ب الصاد، وكذلك قرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل، وسعيد ابن جبير: ووصى، وهذا على خلاف ما انعقد عليه الإجماع، فلا يلتفت إليه. وقرأ أبو عمران، وعاصم الجحدري، ومعاذ القاريء: وقضاء ربك بقاف وضاد بالمد والهمز والرفع وخفض اسم الرب. قال ابن الأنباري: هذا القضاء ليس من باب الحتم والوجوب، لكنه من باب الأمر والفرض، وأصل القضاء في اللغة: قطع الشيء بإحكام واتقان: قال الشاعر يرثي عمر:
 قضيت أمورا ثم غادرت بعدها بوائق في اكمامها لم تفتق

أراد: قطعتها محكماً لها.

قوله تعالى: { وَيُرِي الْمَوْدِيَّةَ } أي: وأمر بالوالدين إحساناً، وهو البر والإكرام، وقد ذكرنا هذا في [البقرة 83].

قوله تعالى: { إِذَا يَبْلُغَنَّ } قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: يبلغن على التوحيد وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: يبلغان على التثنية.

قال الفراء: جعلت يبلغن فعلا لأحدهما وكرت عليهما كلاهما. ومن قرأ يبلغان فإنه ثنى، لأن الوالدين قد ذكرا قبل هذا، فصار الفعل على عددهما، ثم قال: {أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا} على الاستئناف، كقوله: {فَعَمُّوا وَصَمُّوا} [المائدة 71] ثم استأنف فقال: {كَثِيرٌ مِّنْهُمْ}.

قوله تعالى: {قَلَّا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ} قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: أف بالكسر من غير تنوين. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ويعقوب، والمفضل: أف بالفتح من غير تنوين. وقرأ نافع، وحفص عن عاصم: أف بالكسر والتنوين.

وقرأ أبو الجوزاء، وابن يعمر: أف بالرفع والتنوين وتشديد الفاء. وقرأ معاذ القاري، وعاصم الجحدري، وحميد بن قيس: أفا مثل تعسا وقرأ أبو عمران الجوني، وأبو السماك العدوي: أف بالرفع من غير تنوين مع تشديد الفاء، وهي رواية الاصمعي عن أبي عمرو. وقرأ عكرمة، وأبو المتوكل، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: أف بإسكان الفاء وتخفيفها، قال الاخفش: وهذا لأن بعض العرب يقول: أف لك، على الحكاية، والرفع قبيح، لأنه لم يجيء بعده لام. وقرأ أبو العالية، وأبو حصين الأسدي: أفي بتشديد الفاء وبياء. وروى ابن الأنباري أن بعضهم قرأها: إف بكسر الهمزة. وقال الزجاج: فيها سبع لغات، الكسر بلا تنوين، وبتنوين، والضم بلا تنوين، وبتنوين، والفتح بلا تنوين، وبتنوين، واللغة السابعة لا تجوز في القراءة: أفي بالياء، هكذا قال الزجاج. وقال ابن الأنباري: في أف عشرة أوجه. أف لك، بفتح الفاء، وأف بكسرهما، وأف وأفا لك بالنصب والتنوين على مذهب الدعاء كما تقول: ويل للكافرين، وأف لك، بالرفع والتنوين، وهو رفع باللام، كقوله تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ} [المطففون 1]، وأف لك، بالخفض والتنوين، تشبيها بالأصوات، كقولك: صه ومه، وأفها لك، على مذهب الدعاء أيضا، وأفي لك، على الإضافة إلى النفس، وأف لك، بسكون الفاء، تشبيها بالأدوات، مثل: كم وهل وبل، وإف لك، بكسر الألف. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي: قال: وتقول: أف منه، وأف، وأف، وأف، وأف، وأف، وأف، وأف، وأف، مضاف، وأفها، وأفا بالألف، ولا تقل: أفي بالياء فإنه خطأ.

فأما معنى أف ففيه خمسة اقوال.

أحدها: أنه وسخ الظفر، قاله الخليل.

والثاني: وسخ الأذن، قاله الاصمعي. والثالث: قلامة الظفر، قاله ثعلب.

والرابع: أن الأف الاحتقار والاستصغار، من الأف، والأف عند العرب: القلة، ذكره ابن الأنباري. والخامس: أن الأف ما رفعت من الأرض من عود أو قصبة، حكاه ابن فارس اللغوي. وقرأت على شيخنا أبي منصور قال: معنى الأف:

النتن، والتضجر، وأصلها: نفخك الشيء يسقط عليك من تراب ورماد، وللمكان تريد اماطة الأذى عنه، فقيلت لكل مستثقل. قال المصنف: وأما قولهم: تف، فقد جعلها قوم بمعنى أف، فروي عن أبي عبيد أنه قال: أصل الأف والتف: الوسخ على الأصابع إذا فتلت. وحكى ابن الأنباري فرقا، فقال: قال اللغويون: أصل الأف في اللغة: وسخ الأذن، والتف: وسخ الأظفار، فاستعملتهما العرب فيما يكره ويستقذر ويضجر منه. وحكى الزجاج فرقا آخر، فقال: قد قيل: إن أف: وسخ الأظفار، والتف: الشيء الحقير، نحو وسخ الأذن، أو الشظية تؤخذ من الأرض، ومعنى: أف النتن، ومعنى الآية: لا تقل لهما كلما تتبرم فيه بهما إذا كبرا وأسنا، فينبغي أن تتولى من خدمتهما مثل الذي توليا من القيام بشأنك وخدمتك، {وَلَا تَنْهَرُهُمَا} أي: لا تكلمهما ضجرا صائحا في وجوههما. وقال عطاء بن ابي رباح: لا تنفض يدك عليهما، يقال: نهته أنهره نهرا، وانتهرته انتهارا، بمعنى واحد. وقال ابن فارس: نهرت الرجل وانتهرته مثل: زجرته. قال المفسرون: وإنما نهى عن أذاهما في الكبر، وإن كان منها عن على كل حالة، لأن حالة الكبر يظهر فيها منهما ما يضجر ويؤذي، وتكثر خدمتهما.

قوله تعالى: {وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} أي: لينا لطيفا أحسن ما تجد. وقال سعيد بن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفظ. قوله تعالى: {وَكُفِّضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} أي: ألن لهما جانبك متذلا لهما من رحمتك إياهما. وخفض الجناح قد شرحناه في [الحجر 88]. قال عطاء: جناحك: يداك، فلا ترفعهما على والديك. والجمهور يضمون الذال من الذل. وقرأ أبو رزين، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعاصم الجحدري، وابن أبي عيلة: بكسر الذال. قال الفراء: الذل: أن تتذلل لهما، من الذل، والذل: أن تتذلل ولست بذليل في الخدمة، والذل والذلة: مصدر الذليل، والذل، بالكسر: مصدر الذلول، مثل الدابة والأرض. قال ابن الأنباري: من قرأ الذل، بكسر الذال، جعله بمعنى الذل، بضم الذال، والذي عليه كبراء أهل اللغة أن الذل من الرجل: الذليل، والذل من الدابة: الذلول.

قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ رُحْمَهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} أي: مثل رحمتها إياي في صغري حتى ربياني، وقد ذهب قوم إلى أن هذا الدعاء المطلق نسخ منه الدعاء لأهل الشرك بقوله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ}، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، ومقاتل. ولا أرى هذا نسخا عند الفقهاء، لأنه عام دخله التخصيص، وقد ذكر قريبا مما قلته ابن جرير.

قوله تعالى: { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ } أي: بما تضمرون من البر والعقوق، فمن بدرت منه بادرة وهو لا يضر العقوق، غفر له ذلك، وهو قوله تعالى: { إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ } أي: طائعين لله، وقيل بالرّين، وقيل: تَوَابِينَ، { فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا } في الأواب عشرة أقوال: أحدها: أنه المسلم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: [أنه التواب، رواه أبو صالح عن ابن عباس]، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، و الضحاك، وأبو عبيدة، وقال ابن قتيبة: هو التائب مرّة بعد مرّة. وقال الزجاج: هو التواب المقلع عن جميع ما نهاه الله عنه، يقال: قد آب يؤوب أوباً: إذا رجع.

والثالث: أنه المسيح، رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس. والرابع: أنه المطيع لله تعالى، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والخامس: أنه الذي يذكر ذنبه في الخلاء، فيستغفر الله منه، قاله عبيد بن عمير.

والسادس: أنه المقبل إلى الله [تعالى] بقلبه وعمله، قاله الحسن. والسابع: المصلي، قاله قتادة.

والثامن: هو الذي يصلي بين المغرب والعشاء، قاله ابن المنكدر. والتاسع: الذي يصلي صلاة الضحى، قاله عون العقيلي. والعاشر: أنه الذي يذنب سرا ويتوب سرا، قاله السدي.

{ وَءَاتِ دَا لِقُرْبَى حَقَّهُ وَ لِْمَسْكِينٍ وَ لِنَ السَّبِيلِ وَ لآ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ لِمُبْذِرِينَ كَأُولِ إِخْوَنَ الشَّيْطَانِ وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ لِيْتَعَاءَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا قَوْلَ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا }

قوله تعالى: { وَءَاتِ دَا لِقُرْبَى حَقَّهُ } فيه قولان.

أحدهما: أنه قرابة الرجل من قبل أبيه وأمه، قاله ابن عباس، والحسن، فعلى هذا في حقهم ثلاثة أقوال.

أحدها: أن المراد به: برهم وصلتهم.

والثاني: النفقة الواجبة لهم وقت الحاجة.

والثالث: الوصية لهم عند الوفاة.

والثاني: أنهم قرابة الرسول، قاله علي بن الحسين عليهما السلام، والسدي. فعلى هذا، يكون حقهم: إعطاؤهم من الخمس، ويكون الخطاب للولادة.

قوله تعالى: { وَ لِْمَسْكِينٍ وَ لِنَ السَّبِيلِ } قال القاضي أبو يعلى: يجوز أن يكون المراد: الصدقات الواجبة، يعني: الزكاة، ويجوز أن يكون الحق الذي يلزمه إعطاؤه عند الضرور إليه. وقيل: حق المسكين، من الصدقة، وابن السبيل، من الضيافة.

قوله تعالى: { وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا } في التبذير قولان.

أحدهما: أنه إنفاق المال في غير حق، قاله ابن مسعود، وابن عباس. وقال مجاهد: لو أنفق الرجل ماله كله في حق، ما كان مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حق، كان مبذراً. قال الزجاج: التبذير: النفقة في غير طاعة الله، وكانت الجاهلية تنحر الإبل وتبذر الأموال تطلب بذلك الفخر والسمعة، فأمر الله عز وجل بالنفقة في وجهها فيما يقرب منه.

والثاني: أنه الإسراف المتلف للمال، ذكره الماوردي. وقال أبو عبيدة: المبذر: هو المسرف المفسد العاثر.

قوله تعالى { إِنَّ لِمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ } لأنهم يوافقونهم فيما يدعونهم إليه، ويشاكلونهم في معصية الله، { وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا } أي: جاحداً لنعمه. وهذا يتضمن أن المسرف كفور للنعم.

قوله تعالى: { وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ } في المشار إليهم أربعة أقوال. أحدها: أنهم الذين تقدم ذكرهم من الأقارب والمساكين وأبناء السبيل، قاله الأكثرون، فعلى هذا في علة هذا الإعراض قولان. أحدهما: الإعسار، قاله الجمهور.

والثاني: خوف إنفاقهم ذلك في معصية الله، قاله ابن زيد. وعلى هذا في الرحمة قولان.

أحدهما: الرزق، قاله الأكثرون.

والثاني: أنه الصلاح والتوبة، هذا على قول ابن زيد.

والثاني: أنهم المشركون، فالمعنى: وإما تعرض عنهم لتكذيبهم، قاله سعيد بن جبير. فتحتمل إذا الرحمة وجهين.

أحدهما: انتظار النصر عليهم.

والثاني: الهداية لهم.

والثالث: أنهم ناس من مزينة جاؤوا يستحملون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لا أجد ما أحملكم عليه، فبكوا، فنزلت هذه الآية، قاله عطاء الخراساني.

والرابع: أنها نزلت في خباب، وبلال، وعمار، ومهجع، ونحوهم من الفقراء، كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يجد ما يعطيهم، فيعرض عنهم ويسكت، قاله مقاتل. فعلى هذا القول والذي قبله تكون الرحمة بمعنى الرزق.

قوله تعالى: { فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا } قال أبو عبيدة: لنا هينا، وهو من اليسر. وللمفسرين فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه العدة الحسنة، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد.

والثاني: أنه القول الجميل، مثل أن يقول: رزقنا الله وإياك، قاله ابن زيد؛ وهذا على ما تقدم من قوله.

والثالث: أنه المداراة لهم باللسان، على قول من قال: هم المشركون، قاله أبو سليمان الدمشقي؛ وعلى هذا القول، تحتمل الآية النسخ.

{ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ لَبْسُطٍ فتنقُعدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا }

قوله تعالى: { وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ } سبب نزولها: أن غلاما جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ان أمي تسالك كذا وكذا، قال: ما عندنا اليوم شيء، قال: فتقول لك: اكسني قميصك، قال: فخلع قميصه فدفعه إليه، وجلس في البيت حاسرا، فنزلت هذه الآية، قاله ابن مسعود. وروى جابر بن عبد الله نحو هذا، فزاد فيه، فأذن بلال للصلاة، وانتظروه فلم يخرج، فشغل قلوب الصحابة، فدخل عليه بعضهم، فأروه عريانا، فنزلت هذه الآية، والمعنى: لا تمسك يديك عن البذل كل الإمساك حتى كأنها مقبوضة إلى عنقك، { وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ لَبْسُطٍ } في الإعطاء والنفقة { فتنقُعدَ مَلُومًا } تلوم نفسك ويلومك الناس، { مَّحْسُورًا } قال ابن قتيبة: تحسرك العطية وتقطعك كما يحسر السفر البعير فيبقى منقطعا به. قال الزجاج: المحسور: الذي قد بلغ الغاية في التعب والإعياء، فالمعنى: فتقعد وقد بلغت في الحمل على نفسك وحالك حتى صرت بمنزلة من قد حسر. قال القاضي أبو يعلى: وهذا الخطاب أريد به غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يكن يدخر شيئا لغد، وكان يجوع حتى يشد الحجر على بطنه، وقد كان كثير من فضلاء الصحابة ينفقون جميع ما يملكون، فلم ينههم الله، لصحة يقينهم، وإنما نهى من خيف عليه التحسر على ما خرج من يده، فأما من وثق بوعد الله تعالى، فهو غير مراد بالآية.

قوله تعالى: { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } أي: يوسع على من يشاء ويضيق، { إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } حيث أجرى أرزاقهم على ما علم فيه صلاحهم.

قوله تعالى: { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ } قد فسرناه في [الانعام]: [151].

قوله تعالى: { كَانَ حُوبًا كَبِيرًا } قرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: خطأ مكسورة الخاء ساكنة الطاء مهموزة مقصورة.

وقرأ ابن كثير، وعطاء: خطأ مكسورة الخاء ممدودة مهموزة. وقرأ ابن عامر: خطأ بفتح الخاء والطاء وبالهمز من غير مد. وقرأ أبو رزين كذلك، إلا أنه مد. وقرأ الحسن: وقتادة: خطأ بفتح الخاء وسكون الطاء مهموز مقصور. وقرأ الزهري، وحميد بن قيس: خطأ بكسر الخاء وتنوين الطاء من غير همز ولا مد. قال الفراء: الخطأ الإثم، وقد يكون في معنى خطأ كما قالوا: قتب وقتب وحذر وحذر ونجس ونجس، والخطأ، والخطاء، والخطاء، ممدود: لغات؛ وقال أبو عبيدة: خطئت وأخطأت، لغتان. وقال أبو علي: قراءة ابن كثير خطأ، يجوز أن تكون مصدر خاطأ وان لم يسمع خاطأ ولكن قد جاء ما يدل عليه، أنشد أبو عبيدة:

الخطأ والخطأ والخطأ

وقال الأخفش: خطيء يخطأ بمعنى أذنب وليس بمعنى أخطأ، لأن أخطأ: فيما لم يصنعه عمدا، تقول فيما أتيت عمدا: خطئت، وفيما لم تتعمده: أخطأت. وقال ابن الأنباري: الخطأ: الإثم، يقال: قد خطيء يخطأ: إذا أثم، وأخطأ يخطيء: إذا فارق الصواب. وقد شرحنا هذا في [يوسف: 91] عند قوله:

{ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ }

{ وَلَا تَقْرَبُوا إِلَهًا كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ اللَّهِ إِنَّهَا حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي لِقْتَلِ اللَّهِ كَانَتْ مَنصُورًا }

قوله تعالى: { وَلَا تَقْرَبُوا } وقرأ أبو رزين، وأبو الجوزاء، والحسن: بالمد. قال أبو عبيدة: وقد يمد الزنا في كلام أهل نجد، قال الفرزدق:

أبا حاضر من يزن يعرف زناؤه ومن يشرب الخرطوم يصبح مسكرا

وقال أيضاً:

أخضبت فعلك للزنا ولم تكن يوم اللقاء لتخضب الأبطالا

وقال آخر:

كانت فريضة ما نقول كما كان الزنا فريضة الرجم

قوله تعالى: { بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ } قد ذكرناه في [الانعام: 151].

قوله تعالى: { فَقَدْ جَعَلْنَا } قال الزجاج: الأجود إدغام الدال مع الجيم، والإظهار جيد بالغ، إلا أن الجيم من وسط اللسان، والدال من طرف اللسان،

والإدغام جائز، لأن حروف وسط اللسان تقرب من حروف طرف اللسان. ووليّه: الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه، فان لم يكن له ولي، فالسلطان وليه.

وللمفسرين في السلطان قولان.

أحدهما: أنه الحجة، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه الوالي، والمعنى: { فَقَدْ جَعَلْنَا لَوَلِيّهِ سُلْطَانًا } ينصره وينصفه في حقه، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: { فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ } قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو،

وعاصم: فلا يسرف بالياء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: بالتاء.

وفي المشار إليه في الآية قولان.

أحدهما: أنه وليّ المقتول. وفي المراد باسرافه خمسة أقوال. أحدها: أن

يقتل غير القاتل، قاله بن عباس، والحسن.

والثاني: أن يقتل اثنين بواحد، قاله سعيد بن بن جبیر.

والثالث: أن يقتل أشرف من الذي قتل، قاله ابن زيد.

والرابع: أن يمثّل قاله قتادة.

والخامس: أن يتولى هو قتل القاتل دون السلطان، ذكره الزجاج.

والثاني: أن الإشارة الى القاتل الأول، والمعنى: فلا يسرف القاتل بالقتل تعدياً

وظلماً، قاله مجاهد.

قوله تعالى: { إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا } أي معانا عليه.

وفي هاء الكناية أربعة أقوال.

أحدها: أنها ترجع إلى الولي، فالمعنى: أنه كان منصوراً بتمكينه من القود، قاله

قتادة والجمهور.

والثاني: أنها ترجع الى المقتول، فالمعنى: أنه كان منصوراً بقتل قاتله، قاله

مجاهد.

والثالث: أنها ترجع الى الدم، فالمعنى: إن دم المقتول كان منصوراً، أي:

مطلوباً به.

والرابع: أنها ترجع إلى القتل، ذكر القولين الفراء.

{ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ

الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا لِكَيْلِ إِذَا كِلْتُمْ وَزُبُورًا بِالْقِسْطِ أَسْمَأُكُمْ ذَلِكَ

خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ

كُلٌّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا }

قوله تعالى: { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ } قد شرحناه في [الأنعام: 152].

قوله تعالى: { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ } وهو عام فيما بين العبد وبين ربه، وفيما بينه وبين الناس. قال الزجاج: كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد.
 قوله تعالى: { كَانَ مَسْئُولًا } قال ابن قتيبة: أي: مسؤولا عنه.
 قوله تعالى: { وَأَوْفُوا لِكَيْلِ إِذَا كِلْتُمْ } أي: أتموه ولا تبخسوا منه.
 قوله تعالى: { وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ } فيه خمس لغات. أحدها: قسطاس بضم القاف وسينين، وهذه قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وأبي بكر عن عاصم هاهنا وفي [الشعراء: 182]. والثانية: كذلك، إلا أن القاف مكسورة، وهذه قراءة حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم. قال الفراء: هما لغتان. والثالثة: قسطاص، بصادين. والرابعة: قسطاس، بصاد قبل الطاء وسين بعدها، وهاتان مرويتان عن حمزة. والخامسة: قسطان، بالنون. قرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن دريد قال: القسطاس: الميزان، روميّ معرّب، ويقال: قسطاس و قسطاس.
 قوله تعالى: { ذَلِكَ خَيْرٌ } أي: ذلك الوفاء خير عند الله وأقرب إليه، { وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } أي: عاقبة في الجزاء.
 قوله تعالى: { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } قال الفراء: أصل تقف من القيافة، وهي تتبع الأثر، وفيه لغتان: قفا يقفو، وقاف يقوف، وأكثر القراء يجعلونها من قفوت، فيحرك الفاء الى الواو ويجزم القاف كما تقول لا تدع. وقرأ معاذ القاريء: لا تقف، مثل: تفل؛ والعرب تقول: قفت أثره، وقفوت، ومثله: عاث وعاث، وقاع الجمل الناقة، وقعاها: إذا ركبها. قال الزجاج: من قرأ باسكان الفاء وضم القاف من: قاف يقوف، فكأنه مقلوب من قفا يقفو، والمعنى واحد، تقول: قفوت الشيء أقفوه قفوا: إذا تبعت أثره. وقال ابن قتيبة لا تقف، أي لا تتبعه الظنون والحدس، وهو من القفاء مأخوذ، كأنك تقفوا الأمور، أي: تكون في أقفائها وأواخرها تتعقبها، والقائف: الذي يعرف الآثار ويتبعها، فكأنه مقلوب عن القافي.
 وللمفسرين في المراد به أربعة أقوال.
 أحدها: لا ترم أحدا بما ليس لك به علم، رواه العوفي عن ابن عباس.
 والثاني: لا تقل رأيت ولم تر ولا سمعت ولم تسمع، رواه عثمان بن عطاء عن ابيه ابن عباس، وبه قال قتادة.
 والثالث: لا تشرك بالله شيئا، رواه عطاء أيضا عن ابن عباس.
 والرابع: لا تشهد بالزور، قاله محمد بن الحنفية.
 قوله تعالى: { إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالبُحُورَ كُلُّ أُولَئِكَ } قال الزجاج: إنما قال: { كُلُّ }، ثم قال: { كَانَ }، لأن كلا في لفظ الواحد، وإنما قال: { أُولَئِكَ } لغير

الناس، لأن كل جمع أشرت إليه من الناس وغيرهم من الموات، تشير إليه بلفظ أولئك، قال جرير:
 ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

قال المفسرون: الإشارة إلى الجوارح المذكورة، يسأل العبد يوم القيامة فيما إذا وفي هذا زجر عن النظر إلى ما لا يحل، والاستماع إلى ما يحرم، والعزم على ما لا يجوز.

{ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا }
 قوله تعالى: { وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا } وقرأ الضحاك، وابن يعمر: مرحا بكسر الراء، قال الأخفش: والكسر أجود، لأن مرحا اسم الفاعل؛ قال الزجاج: وكلاهما في الجودة سواء، غير أن المصدر أوكد في الاستعمال، تقول: جاء زيد ركضا، وجاء زيد راكضا، ف ركضا أوكد في الاستعمال، لأنه يدل على توكيد الفعل، وتأويل الآية: لا تمش في الأرض مختلا فخورا، والمرح: الأشر والبطر.
 وقال ابن فارس: المرح شدة الفرح.

قوله تعالى: { إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ } فيه قولان.

أحدهما: لن تقطعها إلى آخرها. والثاني: لن تنفذها وتنقبها. قال ابن عباس: لن تخرق الأرض بكبرك، ولن تبلغ الجبال طولا بعظمتك. قال ابن قتيبة: والمعنى: لا ينبغي للعاجز ان يبذخ ويستكبر.

قوله تعالى: { كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ } قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: سَيِّئَةً منونا غير مضاف، على معنى: كان خطيئة فعلي هذا يكون قوله: { كُلُّ ذَلِكَ } إشارة إلى المنهي عنه من المذكور فقط. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: سيئه مضافا مذكرا، فتكون لفظة { كُلُّ } يشار بها إلى سائر ما تقدم ذكره. وكان أبو عمرو لا يرى هذه القراءة. قال الزجاج: وهذا غلط من أبي عمرو، لأن في هذه الأقاصيص سيئا، وحسنا وذلك أن فيها الأمر ببر الوالدين: وإيتاء ذي القربى، والوفاء بالعهد، ونحو ذلك، فهذه القراءة أحسن من قراءة من نصب السيئة، وكذلك قال أبو عبيدة: تدبرت الآيات من قوله تعالى: { وَقَصَىٰ رَبُّكَ } فوجدت فيها أمورا حسنة. وقال أبو علي: من قرأ سيئة رأى أن الكلام انقطع عند قوله: { وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا }، وأن قوله: { وَلَا تَقْفُ } لا حسن فيه.

قوله تعالى: { ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ } يشير إلى ما تقدم من الفرائض والسنن، { مِنْ لِحِكْمَةٍ } أي: من الأمور المحكمة والأدب الجامع لكل خير. وقد سبق معنى المدحور [الاعراف: 18].

{ أَقَاصِفَكُمُ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَ لِحَدِّ مِنْ لِمَلِيكَةِ إِيَّاكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا }

قوله تعالى: { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ } قال مقاتل: نزلت في مشركي العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الرحمن. وقال أبو عبيدة: ومعنى { أَفَأَصْفَاكُمْ } اختصكم. وقال المفضل: أخلصكم. وقال الزجاج: أختار لكم صفوة الشيء. وهذا توبيخ للكفار، والمعنى: أختار لكم البنين دونه، وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه، فاخصكم بالأعلى وجعل لنفسه الأدنى؟
{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا لِقُرءَانٍ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا }
قوله تعالى: { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا } معنى التصريف هاهنا: التبيين، وذلك أنه إنما يصرف القول لبيان. وقال ابن قتيبة: «صرفنا» بمعنى: وجهنا، وهو من قولك: صرفت إليك كذا، أي: عدلت به إليك، كذا وشدد للتكثير، كما تقول: فتحت الأبواب.

قوله تعالى: { لِيَذَكَّرُوا } قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «ليذكروا» مشدد. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: ليذكروا مخفف، وكذلك قرؤوا في [الفرقان: 50]. والتذكر: الاتعاظ والتدبر. { وَمَا يَزِيدُهُمْ } تصريفنا وتذكيرنا { إِلَّا نُفُورًا } قال ابن عباس: ينفرون من الحق ويتبعون الباطل.
{ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَ رَبِّيَ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوهَا كَبِيرًا * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا }

قوله تعالى: { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ } قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: تقولون بالتاء وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم: يقولون بالياء.

قوله تعالى: { إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } فيه قولان. أحدهما: لابتغوا سبيلاً إلى ممانعته وإزالة ملكه، قاله الحسن، وسعيد بن جبير. والثاني: لابتغوا سبيلاً إلى رضاه، لأنهم دونه، قاله قتادة.

قوله تعالى: { عَمَّا يَقُولُونَ } قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر، وحفص عن عاصم: «يقولون» بالياء. وقرأ حمزة، والكسائي: بالتاء.

قوله تعالى: { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ * السَّبْعُ } قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: تسبح بالتاء. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو بكر [عن] عاصم: يسبح بالياء. قال الفراء: وإنما حسنت الياء هاهنا، لأنه

عدد قليل، وإذا قل العدد من المؤنث والمذكر، كانت الياء فيه أحسن من التاء، قال عز وجل في المؤنث القليل: { وَقَالَ نِسْوَةٌ } [يوسف: 30] وقال في المذكر: { فَإِذَا أَنسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ } [التوبة: 5]. قال العلماء: والمراد بهذا التسبيح: الدلالة على أنه الخالق القادر.

قوله تعالى: { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ } إن بمعنى ما. وهل هذا على إطلاقه، أم لا؟ فيه قولان.

أحدهما: أنه على إطلاقه، فكل شيء يسبحه حتى الثوب والطعام وصرير الباب، قاله إبراهيم النخعي.

والثاني: أنه عام يراد به الخاص. ثم فيه ثلاثة أقوال. أحدها: أنه كل شيء فيه الروح، قاله الحسن وقتادة والضحاك. والثاني: أنه كل ذي روح، وكل نام من شجر أو نبات؛ قال عكرمة: الشجرة تسبح، والأسطوانة لا تسبح. وجلس

الحسن على طعام فقدموا الخوان، ف قيل له: أيسبح هذا الخوان؟ فقال: قد كان يسبح مرة. والثالث: أنه كل شيء لم يغير عن حاله، فإذا تغير انقطع تسبيحه؛ روى خالد بن معدان عن المقدم بن معدي كرب قال: إن التراب ليسبح ما لم يتل، فإذا ابتل ترك التسبيح، وإن الورقة تسبح ما دامت على الشجرة، فإذا سقطت تركت التسبيح، وإن الثوب ليسبح ما دام جديداً، فإذا توسخ ترك التسبيح.

فأما تسبيح الحيوان الناطق، فمعلوم، وتسبيح الحيوان غير الناطق، فجائز أن يكون بصوته، وجائز أن يكون بدلالته على صانعه.

وفي تسبيح الجمادات ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه تسبيح لا يعلمه إلا الله. والثاني: أنه خضوعه وخشوعه لله. والثالث: أنه دلالة على صانعه، فيوجب ذلك تسبيح مبصره. فإن قلنا إنه تسبيح حقيقة، كان قوله: { وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } لجميع الخلق؛ وإن قلنا: إنه دلالة على صانعه، كان الخطاب للكفار، لأنهم لا يستدلون، ولا يعتبرون. وقد شرحنا معنى الجليم والغفور في سورة [البقرة: 225].

{ وَإِذَا قَرَأْتَ لِقْرَاءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي لِقْرَاءَانٍ وَخَدَّهُ وَلَوْ عَلَىٰ أذْبَرِهِمْ نُفُورًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * نُظِرَ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ لِيذِي فِطْرِكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا } قوله تعالى: { حِجَابًا مَسْتُورًا } فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أن الحجاب: هو الأكنة على قلوبهم، قاله قتادة.

والثاني: أنه حجاب يستره فلا ترونه؛ وقيل: إنها نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن، قال الكلبي: وهم أبو سفيان والنضر بن الحارث، وأبو جهل، وأم جميل امرأة أبي لهب، فحجب الله رسوله عن أبصارهم عند قراءة القرآن، فكانوا يأتونه ويمرون به، ولا يرونه. والثالث: أنه منع الله عز وجل إياهم عن أذاه، حكاه الزجاج. وفي معنى { مَسْتُورًا } قولان.

أحدهما: أنه بمعنى ساتر؛ قال الزجاج: وهذا قول أهل اللغة. قال الأخفش: وقد يكون الفاعل في لفظ المفعول، كما تقول: إنك مشؤوم علينا، وميمون علينا، وإنما هو شائم ويامن، لأنه من شأمهم ويمنهم.

والثاني: أن المعنى: حجاباً مستورا عنكم لا ترونه، ذكره الماوردي. وقال ابن الأنباري: إذا قيل: الحجاب: هو الطبع على قلوبهم، فهو مستور عن الأبصار، فيكون مستورا باقياً على لفظه.

قوله تعالى: { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ } قد شرحناه في سورة [الأنعام: 25].

قوله تعالى: { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ } يعني: قلت: لا إله إلا الله، وأنت تتلو القرآن { وَلَوْ أَعْلَمُ عَلَى آذَانِهِمْ } قال أبو عبيدة: أي: على أعقابهم، { تُفُورًا } وهو: جمع نافر، بمنزلة قاعد وقعود، وجالس وجلوس. وقال الزجاج: تحتمل مذهبين. أحدهما: المصدر، فيكون المعنى: ولوا نافرين نفوراً. والثاني: أن يكون نفوراً جمع نافر.

وفي المشار إليهم قولان. أحدهما: أنهم الشياطين، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم المشركون، وهذا مذهب ابن زيد.

قوله تعالى: { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ } قال المفسرون: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً عليه السلام أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين، ففعل ذلك، ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى التوحيد، وكانوا يستمعون ويقولون فيما بينهم: هو ساحر، هو مسحور، فنزلت هذه الآية: { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ }، أي: يستمعونه، والباء زائدة. { إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى } قال أبو عبيدة: هي مصدر من ناجيئ وأسم منها، فوصف القوم بها، والعرب تفعل ذلك، كقولهم: إنما هو عذاب، وأنتم عم، فجاءت في موضع متناجين. وقال الزجاج: والمعنى: وإذ هم ذوو نجوى، وكانوا يستمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقولون بينهم: هو ساحر، وهو مسحور، وما أشبه ذلك من القول.

قوله تعالى: {إِذْ يَقُولُ لِ الظَّالِمُونَ} يعني: أولئك المشركون {إِنْ تَتَّبِعُونَ} أي: ما تتبعون {إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا} وفيه ثلاثة أقوال. أحدها: أنه الذي سحر فذهب بعقله، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: مخدوعاً مغروراً، قاله مجاهد. والثالث: له سحر، أي: رئة؛ وكل دابة أو طائر أو بشر يأكل فهو: مسحور ومسحور، لأن له سحراً، قال لبيد: فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحور

وقال امرؤ القيس:

أرانا مرصدين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

أي: نغذى، لأن أهل السماء لا يأكلون، فأراد أن يكون ملكاً. فعلى هذا يكون المعنى: إن تتبعون إلا رجلاً له سحر، خلقه الله كخلقكم، وليس بملك وهذا قول أبي عبيدة.

قال ابن قتيبة: والقول قول مجاهد، [أي: مخدوعاً]، لأن السحر حيلة وخديعة، ومعنى قول لبيد المسحر: المعلل، وقول امرئ القيس: ونسحر أي: نعلل، وكأننا نخدع، والناس يقولون: سحرتني بكلامك، أي: خدعتني، ويدل عليه قوله: { يُظَرُّ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ [الأمثال] }، لأنهم لو أرادوا رجلاً ذا رئة، لم يكن في ذلك مثل ضربوه، فلما أرادوا مخدوعاً - كأنه بالخديعة سحر - كان مثلاً ضربوه، وكأنهم ذهبوا إلى أن قوماً يعلمونه ويخدعونهم. قال المفسرون: ومعنى { صَرَبُوا لَكَ [الأمثال] } بينوا لك الأشباه، حتى شبهوك بالساحر والشاعر والمجنون { فُضِّلُوا } عن الحق، { فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا } فيه ثلاثة أقوال. أحدها: لا يجدون سبيلاً إلى تصحيح ما يعيبونك به.

والثاني: لا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى، لأننا طبعنا على قلوبهم.

والثالث: لا يأتون سبيل الحق، لثقله عليهم؛ ومثله قولهم: لا أستطيع أن أنظر

إلى فلان، يعنون: أنا مبغض له، فنظري إليه يثقل، ذكرهن ابن الأنباري.

قوله تعالى: {أءَدَا كُنَّا عِظْمًا} قرأ ابن كثير: {أيذا} بهمزة ثم يأتي بياء

ساكنة من غير مد، {وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا} مثله، وكذلك في كل القرآن. وكذلك روي

قالون عن نافع، إلا أن نافعاً كان لا يستفهم في {أَيُّنَا}، كان يجعل الثاني خيراً

في كل القرآن، وكذلك مذهب الكسائي، غير أنه بهمز الأولى همزتين. وقرأ

عاصم، وحمزة بهمزتين في الحرفين جميعاً. وقرأ ابن عامر: إذا كنا بغير

استفهام بهمزة واحدة أئنا بهمزتين يمد بينهما مدة.

قوله تعالى: {وَرُقَاتًا} فيه قولان.

أحدهما: أنه التراب، ولا واحد له، فهو بمنزلة الدقاق والحطام، قاله الفراء، وهو مذهب مجاهد.

والثاني: أنه العظام مالم تتحطم، والرفات: الحطام، قاله أبو عبيدة. وقال الزجاج: الرفات: التراب. والرفات: كل شيء حطم وكسر، و{خَلَقًا جَدِيدًا} في معنى مجدداً.

قوله تعالى: {أَوْ خَلَقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ} فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه الموت، قاله ابن عمر، وابن عباس، والحسن، والأكثر.

والثاني: أنه السماء والارض والجبال، قاله مجاهد.

والثالث: أنه ما يكبر في صدوركم، من كل ما استعظموه من خلق الله تعالى، قاله قتادة.

فإن قيل: كيف قيل لهم: {كُوْنُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا} وهم لا يقدرون على ذلك؟ فعنه جوابان.

أحدهما:

إن قدرتم على تغير حالاتكم، فكونوا حجارة أو اشد منها، فإننا نमितكم، وننفذ أحكامنا فيكم، ومثل هذا قولك للرجل: اصعد إلى السماء فإنني لاحقك.

والثاني: تصوروا أنفسكم حجارة أو أصلب منها، فإننا سنبيدكم، قال الاحوص: إذا كنت عزهاة عن اللهو والصبى فكن حجرا من يابس الصخر جلما

معناه: فتصور نفسك حجراً، وهؤلاء قوم اعترفوا أن الله خالقهم، ووجدوا البعث، فأعلموا أن الذي ابتداء خلقهم هو الذي يحييهم.

قوله تعالى: {فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ} قال قتادة: يحركونها تكذيباً

واستهزاء. قال الفراء: يقال أنغض رأسه إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل.

وقال ابن قتيبة: المعنى: يحركونها، كما يحرك الآيس من الشيء والمستبعد [له] رأسه، يقال: نغضت سنه، إذا تحركت.

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ} يعنون البعث {قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا}

أي: هو قريب. ثم بين متى يكون فقال: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ} يعني: من القبور

بالنداء الذي يسمعكم، وهو النفخة الأخيرة {فَتَسْتَجِيبُونَ} أي: تجيبون. قال

مقاتل: يقوم إسرافيل على صخرة بيت المقدس يدعو أهل القبور في قرن،

فيقول: أيتها العظام البالية، وأيتها اللحوم المتمزقة، وأيتها الشعور المتفرقة،

وأيتها العروق المتقطعة، اخرجوا إلى فصل القضاء لتجزوا بأعمالكم،

فيسمعون الصوت، فيسعون إليه.

وفي معنى {بِحَمْدِهِ} أربعة أقوال.

أحدها: بأمره، قاله ابن عباس، وابن جريج، وابن زيد.

والثاني: يخرجون من القبور وهم يقولون: سبحانك وبحمدك، قاله سعيد بن جبير. والثالث: أن معنى {يَحْمَدِهِ} بمعرفته، وطاعته، قاله قتادة. قال الزجاج: تستجيون مقربين أنه خالقكم.

والرابع: تجيبون بحمد الله لا بحمد أنفسكم، ذكره الماوردي. قوله تعالى: {وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} في هذا الظن قولان. أحدهما: أنه بمعنى اليقين.

والثاني: أنه على أصله. وأين يظنون أنهم لبثوا قليلاً؟ فيه ثلاثة أقوال. أحدها: بين النفختين، ومقداره أربعون سنة، ينقطع في ذلك العذاب عنهم، فيرون لبثهم في زمان الراحة قليلاً، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: في الدنيا، لعلمهم بطول اللبث في الآخرة، قاله الحسن. والثالث: في القبور، قاله مقاتل. فعلى هذا إنما قصر اللبث في القبور عندهم، لأنهم خرجوا إلى ما هو أعظم عذاباً من عذاب القبور.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية خطاب للمؤمنين، لأنهم يجيبون المنادي وهم يحمدون الله على إحسانه إليهم، ويستقلون مدة اللبث في

القبور، لأنهم كانوا غير معذبين. {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا لِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا}

قوله تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا لِي هِيَ أَحْسَنُ} في سبب نزولها قولان. أحدهما: أن المشركين كانوا يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، بالقول والفعل، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية. قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أن رجلاً من الكفار شتم عمر بن الخطاب، فهم به عمر رضي الله عنه، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل؛ والمعنى: وقل لعبادي المؤمنين يقولوا الكلمة التي هي أحسن. واختلفوا فيمن تقال له هذه الكلمة على قولين. أحدهما: أنهم المشركون، قال الحسن: تقول له: يهديك الله، وما ذكرنا من سبب نزول الآية يؤيد هذا القول. وذهب بعضهم إلى أنهم أمروا بهذه الآية بتحسين خطاب المشركين قبل الأمر بقتالهم، ثم نسخت هذه الآية بآية السيف.

والثاني: أنهم المسلمون، قاله ابن جرير. والمعنى: وقل لعبادي يقول بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة. وقد روى مبارك عن الحسن قال: التي هي أحسن أن يقول له مثل قوله، ولكن يقول له: يرحمك الله، ويغفر الله لك. قال الأخفش: وقوله: {قُولُوا} مثل قوله: يقيموا الصلاة وقد شرحنا ذلك في سورة [ابراهيم: 31]

{قُلْ لِّلَّذِينَ رَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا*
أُولَئِكَ لِيَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ لَوْ سِيلَةً أَنَّهُمْ أَقْرَبُ وَيَتْرُجُونَ رَحْمَتَهُ
وَيَخْفُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْدُورًا }

قوله تعالى: {قُلْ لِّلَّذِينَ رَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ} في سبب نزولها قولان. أحدهما: أن نفراً من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجن والنفر من العرب لا يشعرون، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، روي عن ابن مسعود. والثاني: أن المشركين كانوا يعبدون الملائكة، ويقولون: هي تشفع لنا. عند الله، فلما ابتلوا بالقحط سبع سنين، قيل لهم: ادعوا الذين زعمتم، قاله مقاتل، والمعنى: قل ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة، {فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} له إلى غيركم. قوله تعالى: {أُولَئِكَ لِيَدْعُونَ} في المشار إليهم ب أولئك ثلاثة أقوال. أحدها: أنهم الجن الذين أسلموا. والثاني: الملائكة. وقد سبق بيان القولين. والثالث: أنهم المسيح، وعزير، والملائكة، والشمس، والقمر، قاله ابن عباس. وفي معنى يدعون قولان.

أحدهما: يعبدون، أي: يدعونهم آلهة، وهذا قول الأكثرين. والثاني: أنه بمعنى يتضرعون إلى الله في طلب الوسيلة. وعلى هذا يكون قوله يدعون راجعاً إلى أولئك، ويكون قوله: يبتغون تماماً للكلام. وعلى القول الأول: يكون يدعون راجعاً إلى المشركين، ويكون قوله: يبتغون وصفاً ل أولئك مستأنفاً. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن: تدعون بالتاء. قال ابن الأبناري: فعلى هذا، الفعل مردود إلى قوله: {فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ}. ومن قرأ يدعون بالياء، قال: العرب تنصرف من ا ومن قرأ يدعون بالياء، قال: العرب تنصرف من الخطاب إلى الغيبة إذا أمن اللبس. ومعنى يدعون: يدعونهم آلهة. وقد فسرنا معنى الوسيلة في [المائدة: 35].

وفي قوله: {أَنَّهُمْ أَقْرَبُ} قولان ذكرهما الزجاج. أحدهما: أن يكون أيهم مرفوعاً بالابتداء، وخبره أقرب، ويكون المعنى يطلبون الوسيلة إلى ربهم، ينظرون أيهم أقرب إليه فيتوسلون إلى الله به. والثاني: أن يكون أيهم أقرب بدلاً من الواو في يبتغون، فيكون المعنى: يبتغي أيهم هو أقرب الوسيلة إلى الله، أي: يتقرب إليه بالعمل الصالح. {وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ لِقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي لِكْتَابٍ مَّسْطُورًا }

قوله تعالى: {وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا} إن بمعنى ما، والقرية الصالحة هلاكها بالموت، والعاصية بالعذاب، والكتاب: اللوح المحفوظ، والمسطور: المكتوب.

{ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا }

قوله تعالى: { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ } سبب نزولها فيه قولان. أحدهما: أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهاباً، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا، فقبل له: إن شئت أن تستأني بهم لعلنا نجتبي منهم، وإن شئت نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من كان قبلهم، قال لا، بل أستأني بهم، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والثاني: قد ذكرناه عن الزبير في قوله: { وَلَوْ أَنَّ قُرَآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ } [الرعد: 31]، ومعنى الآية: وما منعنا إرسال الآيات التي سألوها إلا تكذيب الأولين، يعني: أن هؤلاء سألوا الآيات التي استوجب بتكذيبها الأولون العذاب، فلم يرسلها لئلا يكذب بها هؤلاء، فيهلكوا كما هلك أولئك، وسنة الله في الأمم أنهم إذا سألوا الآيات ثم كذبوا بها عذبهم.

قوله تعالى: { وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً } قال ابن قتيبة: أي: بينة، يريد: مبصرة بها. قال ابن الأنباري: ويجوز أن تكون مبصرة، ويصلح أن يكون المعنى: مبصر مشاهدوها، فنسب إليها فعل غيرها تجوزاً، كما يقال: لا أرينك هاهنا، فأدخل حرف النهي على غير المنهي عنه، إذ المعنى لا تحضر هاهنا، حتى إذا جئت لم أرك فيه. ومن قرأ مبصرة بفتح الميم والصاد، فمعناه: المبالغة في وصف الناقة بالتيبان، كقولهم: الولد مجبنة.

قوله تعالى: { فَظَلَمُوا بِهَا } قال ابن عباس: فجدوا بها. وقال الأخفش: بها كان ظلمهم.

قوله تعالى: { وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } أي: نخوف العباد ليتعظوا. وللمفسرين في المراد بهذه الآيات أربعة أقوال.

أحدها: أنها الموت الذريع، قاله الحسن. والثاني: معجزات الرسل جعلها الله تعالى تخويفاً للمكذبين. والثالث: آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي. والرابع: تقلب أحوال الإنسان من صغر إلى شباب، ثم إلى كهولة، ثم إلى مشيب، ليعتبر بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره، ذكر هذه الأقوال الثلاثة الماوردي،

ونسب القول الأخير منها إلى إمامنا أحمد رضي الله عنه. { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الِّمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا }

قوله تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ } فيه ثلاثة أقوال. أحدها: أحاط علمه بالناس، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الربيع ابن انس. وقال مقاتل: أحاط علمه بالناس، يعني: أهل مكة، أن يفتحها لرسوله

صلى الله عليه وسلم. والثاني: أحاطت قدرته بالناس، فهم في قبضته، قاله مجاهد.

والثالث: حال بينك وبين الناس أن يقتلوك، لتبلغ رسالته، قاله الحسن، وقتادة. قوله تعالى: { وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا لِئِيَّاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ } في هذه الرؤيا قولان.

أحدهما: أنها رؤيا عين، وهي ما رأى ليلة أسري به من العجائب والآيات. روى عكرمة عن ابن عباس قال: هي رؤيا عين رآها ليلة أسري به، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، ومسروق، والنخعي، وقتادة، وأبو مالك، وأبو صالح، وابن جريج، وابن زيد في آخرين. فعلى هذا يكون معنى الفتنة: الاختبار، فإن قوما آمنوا بما قال. وقوما كفروا. قال ابن الأنباري: المختار في هذه الرؤية أن تكون يقظة، ولا فرق بين أن يقول القائل: رأيت فلانا رؤية، ورأيت رؤيا، إلا أن الرؤية يقل استعمالها في المنام، والرؤيا يكثر استعمالها في المنام، ويجوز كل واحد منهما في المعنيين.

والثاني: أنها رؤيا منام. ثم فيها قولان. أحدهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أرى أنه يدخل مكة، هو وأصحابه، وهو يومئذ بالمدينة، فعجل قبل الأجل، فرده المشركون، فقال أناس: قد رد، وكان حدثنا أنه سيدخلها، فكان رجوعهم فتنتهم، رواه العوفي عن ابن عباس. وهذا لا ينافي حديث المعراج، لأن هذا كان بالمدينة، والمعراج كان بمكة، قال أبو سليمان الدمشقي: وإنما ذكره ابن عباس على وجه الزيادة في الإخبار لنا أن المشركين بمكة افتتنوا برؤيا عينه، والمنافقين بالمدينة افتتنوا برؤيا نومه. والثاني: أنه أرى بني أمية على المنابر، فساء ذلك، ف قيل له: إنها الدنيا يعطونها، فسري عنه. فالفتنة هاهنا: البلاء، رواه علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب،

وإن كان مثل هذا لا يصح، ولكن قد ذكره عامة المفسرين. وروى ابن الأنباري أن سعيد بن المسيب قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على منابر، فشق ذلك عليه، وفيه نزل: { وَالشَّجَرَةَ لَمَلْعُوْتَةٍ فِي الْقُرْءَانِ }، قال: ومعنى قوله: { إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ } : إلا بلاء للناس، قال ابن الأنباري: فمن ذهب إلى أن الشجرة رجال رآهم النبي صلى الله عليه وسلم في منامه يصعدون على المنابر، احتج بأن الشجرة يكنى بها عن المرأة لتأنيثها، وعن الجماعة لاجتماع أغصانها. قالوا: ووقعت اللعنة بهؤلاء الذين كنى عنهم بالشجرة. قال المفسرون: وفي الآية تقديم وتأخير، تقديره: وما جعلنا الرؤيا والشجرة إلا فتنة للناس.

وفي هذه الشجرة ثلاثة أقوال.

أحدها: أنها شجرة الزقوم، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة ومسروق، والنخعي، والجمهور. وقال مقاتل: لما ذكر الله تعالى شجرة الزقوم قال أبو جهل: يا معشر قريش. ان محمداً يخوفكم بشجرة الزقوم، أستم تعلمون ان النار تحرق الشجر؟ ومحمد يزعم ان النار تنبت الشجر، فهل تدرون ما الزقوم؟ فقال عبد الله بن الزبير: إن الزقوم بلسان بربر: التمر والزبد، فقال أبو جهل: يا جارية ابغينا تمرا وزبدا، فجاءته به، فقال لمن حوله: تزقموا من هذا الذي يخوفكم به محمد، فأنزل الله تعالى: {وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا}. قال ابن قتيبة: كانت فتنتهم بالرؤيا قولهم: كيف يذهب إلى بيت المقدس، ويرجع في ليلة؟ وبالشجرة قولهم: كيف يكون في النار شجرة؟

وللعلماء في معنى الملعونة ثلاثة أقوال. أحدها: المذمومة، قاله ابن عباس. والثاني: الملعون أكلها، ذكره الزجاج، وقال: إن لم يكن في القرآن ذكر لعنها، ففيه لعن أكلها، قال: والعرب تقول لكل طعام مكروه وضار ملعون؛ فأما قوله: {وَجَعَلْنَا عَلَيَّ} فالمعنى: التي ذكرت في القرآن، وهي مذكورة في قوله: {إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ * طَعَامٌ لِالْأَثِيمِ} [الدخان: 43، 44]. والثالث: أن معنى الملعونة: المبعدة عن منازل أهل الفضل، ذكره ابن الأنباري. والقول الثاني: ان الشجرة الملعونة هي التي تلتوي على الشجر، يعني: الكشوثي، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً.

والثالث: ان الشجرة كناية عن الرجال على ما ذكرنا عن سعيد بن المسيب. قوله تعالى: {وَنُحَوِّفُهُمْ} قال ابن الأنباري: مفعول نخوفهم محذوف، تقديره: ونخوفهم العذاب، فما {يَزِيدُهُمْ} أي: فما يزيدهم التخويف {إِلَّا طُغْيَانًا}، وقد ذكرنا معنى الطغيان في [البقرة: 15]، وذكرنا هناك تفسير قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ} [البقرة: 34]. {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}

قوله تعالى: {أسجد} قرأه الكوفيون: بهمزتين. وقرأه الباقون: بهمزة مطولة؛ وهذا استفهام إنكار يعني به: لم أكن لأفعل.

قوله تعالى: {أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا} قال الزجاج: طيناً منصوب على وجهين. أحدهما: التمييز، المعنى: لمن خلقته من طين. والثاني: على الحال، المعنى: أنشأته في حال كونه من طين. ولفظ {قَالَ أَرَأَيْتَكَ} جاء هاهنا بغير حرف عطف، لأن المعنى: قال أسجد لمن خلقت طينا، وأرأيتك، وهي في معنى: أخبرني، والكاف ذكرت في المخاطبة توكيدا، والجواب محذوف،

والمعنى: أخبرني عن هذا الذي كرمت علي لم كرمته علي، وقد خلقتني من نار وخلقته من طين؟ فحذف هذا، لأن في الكلام دليلاً عليه.

قوله تعالى: {لَيْنٌ أَحْرَزْنِ إِلَى يَوْمِ لُقْيَمَةِ} قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمر: أخرتني بياء في الوصل. وقف ابن كثير بالياء. وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، بغير ياء في وصل ولا في وقف.

قوله تعالى: {لَا حَتِينَكَ دُرِّيَّتُهُ} فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: لأستولين عليهم، قاله ابن عباس، والفراء.

والثاني: لأضلنهم، قاله ابن زيد.

والثالث: لأستأصلنهم؛ يقال: احتنك الجراد ما على الأرض: إذا أكله؛ واحتنك فلان ما عند فلان من العلم: إذا استقصاه، فالمعنى: لأقودنهم كيف شئت، هذا قول ابن قتيبة.

فإن قيل: من أين علم الغيب. فقد أجبتنا عنه في سورة [النساء: 119].

قوله تعالى: {إِلَّا قَلِيلاً} قال ابن عباس: هم أولياء الله الذين عصمهم.

قوله تعالى: {قَالَ لَهَبٌ} هذا اللفظ يتضمن إنظاره؛ {فَمَنْ تَبِعَكَ}، أي: تبع أمرك منهم، يعني: ذرية آدم. والموفور: الموفر. قال ابن قتيبة: يقال: وفرت ماله عليه، ووفرت، بالتخفيف والتشديد.

قوله تعالى: {وَسُتْفِرُّ مَن سُلِّطَتْ مِنْهُم} قال ابن قتيبة: استخف، ومنه تقول: استفزني فلان.

وفي المراد بصوته قولان. أحدهما: أنه كل داع دعا إلى معصية الله، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الغناء والمزامير، قاله مجاهد.

قوله تعالى: {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ} أي: صح {بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ} واحتشم عليهم بالإغراء؛ يقال:

أجلب القوم وجلبوا: إذا صاحوا. وقال الزجاج: المعنى: اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكاييدك؛ فعلى هذا تكون الباء زائدة. قال ابن قتيبة: والرجل: الرجالة؛ يقال: راجل ورجل، مثل تاجر وتجر، وصاحب وصحب. قال ابن عباس: كل خيل تسير في معصية الله، وكل رجل يسير في معصية الله. وقال قتادة: إن له خيلاً ورجلاً من الجن والانس. وروى حفص عن عاصم: بخيلك ورجلك بكسر الجيم، وهي قراءة ابن عباس، وأبي رزين، وأبي عبد الرحمن السلمي. قال أبو زيد: يقال: رجل رجل: للراجل، ويقال: جاءنا حافياً رجلاً.

وقرأ ابن السميغ، والجحدري: بخيلك ورجالك برفع الراء وتشديد الجيم

مفتوحة وبالف بعدها. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وعكرمة: «وَرَجَالِكَ»

بكسر الراء وتخفيف الجيم مع ألف.

قوله تعالى: {وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ} فيه أربعة أقوال.

أحدها: أنها ما كانوا يحرّمونه من أنعامهم، رواه عطية عن ابن عباس. والثاني: الأموال التي أصيبت من حرام، قاله مجاهد.

والثالث: التي أنفقوها في معاصي الله، قاله الحسن.

والرابع: ما كانوا يذبحون لألهتهم، قاله الضحاك.

فأما مشاركته إياهم في الأولاد، ففيها أربعة أقوال.

أحدها: أنهم أولاد الزنا، رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك.

والثاني: المؤودة من أولادهم، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثالث: أنه تسمية أولادهم عبيداً لأوثانهم، كعبد شمس، وعبد العزى، وعبد مناف، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والرابع: ما مجسوا وهودوا ونصروا، وصبغوا من أولادهم غير صبغة الإسلام، قاله الحسن، وقتادة.

قوله تعالى: { وَعَدَّهُمْ } قد ذكرناه في قوله { يَعِدُّهُمْ وَيُمَتِّعُهُمْ } إلى آخر الآية

[النساء: 120]. وهذه الآية لفظها لفظ الأمر، ومعناها التهديد، ومثلها في

الكلام أن تقول للإنسان: أجهد جهدك فسترى ما ينزل بك. قال الزجاج: إذا

تقدم الأمر نهي عما يؤمر به، فمعناه التهديد والوعيد، تقول للرجل: لا تدخلن

هذه الدار؛ فإذا حاول أن يدخلها قلت: ادخلها وأنت رجل، فليست تأمره

بدخولها، ولكنك توعدده وتهدده، ومثله { عَمَلُوا مَا شِئْتُمْ } [فصلت: 40] وقد

نهوا أن يعملوا بالمعاصي. وقال ابن الأنباري: هذا أمر معناه التهديد، تقديره:

إن فعلت هذا عاقبناك وعذبنك، فنقل إلى لفظ الأمر عن الشرط، كقوله:

{ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ } [الكهف: 29].

قوله تعالى:

{ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } قد شرحناه في [الحجر: 42].

قوله تعالى: { وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا } قال الزجاج: كفى به وكيلاً لأوليائه يعصمهم

من القبول من إبليس.

{ رَبُّكُمْ لِيَدِّي يُزْجِي لَكُمْ لِقَاءَ فِي لُبْحِكُمْ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا

* وَإِذَا مَسَّكُمْ لِصْرٌ فِي لُبْحِكُمْ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا

أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا * أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ

عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ

فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ

تَبِيعًا * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي لُبْحِكُمْ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا }

قوله تعالى: { رَبُّكُمْ لِيَذِيَ يُزْجِي لَكُمْ لُفْلُكَ } أي: يسيرها. قال الزجاج: يقال: زجيت الشيء، أي: قدمته.

قوله تعالى: { لَتَبْتَغُوا مِن قَضَلِهِ } أي: في طلب التجارة.

وفي من ثلاثة أقوال.

أحدها: أنها زائدة. والثاني: أنها للتبويض. والثالث: أن المفعول محذوف،

والتقدير: لتبتغوا من فضله الرزق والخير، ذكرهن ابن الأنباري.

قوله تعالى: { إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } هذا الخطاب خاص للمؤمنين، ثم خاطب

المشركين فقال: { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ } يعني: خوف الغرق { صَلَّ

مَنْ تَدْعُونَ } أي: يضل من يدعون من الآلهة، إلا الله تعالى. ويقال: ضل

بمعنى غاب، يقال: ضل الماء في اللبن: إذا غاب، والمعنى: أنكم أخلصتم

الدعاء [لله]، ونسيتم الأنداد. وقرأ مجاهد، وأبو المتوكل: ضل من يدعون

بالياء. { فَلَمَّا تَجَّكُمُ إِلَى بُرِّ أَعْرَضْتُمْ } عن الإيمان والإخلاص { وَكَانَ الْإِنْسَانُ

{ يَعْنِي الْكَافِرَ { كَفُورًا } بنعمة ربه. { أَقَامِنْتُمْ } إذا خرجتم من البحر { أَنْ

يَخْسِفَ بِكُمْ } قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: نخسف بكم أو نرسل أن نعيدكم

فنرسل فنغرقكم بالنون في الكل. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة،

والكسائي، بالياء في الكل. ومعنى { تَخْسِفُ * بِكُمْ جَانِبَ بُرِّ } أي: نغيبكم

وينذهبكم في ناحية البر، والمعنى: إن حكمتي نافذ في البر نفوذه في البحر،

{ أَوْ * تُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا } فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الحاصب: حجارة من السماء، قاله قتادة.

والثاني: أنه الريح العاصف تحصب، قاله أبو عبيدة، وأنشد للفرزدق:

مستقبلين شمال الريح تضربهم بحاصب كنديف القطن منشور

وقال ابن قتيبة: الحاصب: الريح، سميت بذلك لأنها تحصب، أي: ترمي

بالحصباء، وهي الحصى الصغار. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: الحاصب:

الريح التي فيها الحصى. وإنما قال في الريح: حاصباً ولم يقل: حاصبة لأنه

وصف لزم الريح ولم يكن لها مذكر تنتقل إليه في حال، فكان بمنزلة قولهم:

حائض للمرأة، حين لم يقل: رجل حائض. قال: وفيه جواب آخر، وهو أن نعت

الريح عري من علامة التأنيث، فأشبهت بذلك أسماء المذكر، كما قالوا:

السماء أمطر، والأرض أنبت.

والثالث: أن الحاصب: التراب الذي فيه حصباء، قاله الزجاج.

قوله تعالى: { ثُمَّ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً } أي: مانعاً وناصرأ.

قوله تعالى: { أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ } أي: في البحر { تَارَةً أُخْرَى } أي:

مرة أخرى، والجمع تارات. { فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِّنَ الرِّيحِ } قال أبو عبيدة:

هي التي تقصف كل شيء. قال ابن قتيبة: القاصف، الريح التي تقصف الشجر، أي: تكسره.

قوله تعالى: {فَيَغْرِقُكُمْ} وقرأ أبو المتوكل، وأبو جعفر، وشيبة، ورويس: فتغرقكم بالتاء، وسكون الغين، وتخفيف الراء. وقرأ أبو الجوزاء، وأيوب: فيغرقكم بالياء، وفتح الغين، وتشديدها. وقرأ أبو رجاء مثله، إلا أنه بالتاء، {يَمَّا كَفَرْتُمْ} أي: بكفركم حيث نجوتم في المرة الأولى، {ثُمَّ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} قال ابن قتيبة: أي: من يتبع بدمائكم، أي: يطالبنا. قال عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما: ريح العذاب أربع، اثنتان في البر، واثنتان في البحر، فاللتان في البر: الصرصر، والعقيم، واللتان في البحر: العاصف، والقاصف. قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} أي: فضلناهم. قال أبو عبيدة: وكرمنا أشد مبالغة من أكرمنا.

وللمفسرين فيما فضلوا به أحد عشر قولاً.

أحدها: أنهم فضلوا على سائر الخلق غير طائفة من الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، وأشباههم،

قاله أبو صالح عن ابن عباس. فعلى هذا يكون المراد: المؤمنين منهم، ويكون تفضيلهم بالإيمان.

والثاني: أن سائر الحيوان يأكل بفيه، إلا ابن آدم فإنه يأكل بيده، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس. وقال بعض المفسرين: المراد بهذا التفضيل: أكلهم بأيديهم، ونظافة ما يقتاتونه، إذ الجن يقتاتون العظام والروث.

والثالث: فضلوا بالعقل، روي عن ابن عباس.

والرابع: بالنطق والتمييز، قاله الضحاك.

والخامس: بتعديل القامة وامتدادها، قاله عطاء.

والسادس: بأن جعل محمدا صلى الله عليه وسلم منهم، قاله محمد بن كعب.

والسابع: فضلوا بالمطاعم واللذات في الدنيا، قاله زيد بن أسلم.

والثامن: بحسن الصورة، قاله يمان.

والتاسع: بتسليطهم على غيرهم من الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم، قاله

محمد بن جرير.

والعاشر: بالأمر والنهي، ذكره الماوردي.

والحادي عشر: بأن جعلت اللحي للرجال، والذوائب للنساء، ذكره الثعلبي.

فان قيل: كيف أطلق ذكر الكرامة على الكل، وفيهم الكافر المهان؟

فالجواب من وجهين. أحدهما: أنه عامل الكل معاملة المكرم بالنعم الوافرة.

والثاني: أنه لما كان فيهم من هو بهذه الصفة، أجرى الصفة على جماعتهم،

كقوله: {كُنْتُمْ * أُمَّةً أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران 110].

قوله تعالى: { وَحَمَلْتُهُمْ فِي أُبْرٍ } علي أكباد رطبة، وهي: الإبل، والخيول، والبغال، والحمير، { و } في { حَاضِرَةَ لِبْحَرٍ } علي أعواد يابسة، وهي: السفن. { وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ اللَّطِيبَاتِ } فيه قولان. أحدهما: الحلال. والثاني: المستطاب في الذوق. قوله تعالى: { وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } فيه قولان. أحدهما: أنه علي لفظه، وأنهم لم يفضلوا علي سائر المخلوقات. وقد ذكرنا عن ابن عباس أنهم فضلوا علي سائر الخلق غير طائفة من الملائكة. وقال غيره: بل الملائكة أفضل.

والثاني: أن معناه: وفضلناهم علي جميع من خلقنا. والعرب تضع الأكثر والكثير في موضع الجمع، كقوله: { يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ } [الشعراء 223]. وقد روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: المؤمن أكرم علي الله عز وجل من الملائكة الذين عنده. { يَوْمَ يَدْعُوا كُلُّ أَنَاسٍ بِأَمِّهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينًا فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَصْلٌ سَبِيلًا }.

قوله تعالى: { يَوْمَ تَدْعُوا } قال الزجاج: هو منصوب علي معنى: اذكر { يَوْمَ تَدْعُوا كُلُّ أَنَاسٍ بِأَمِّهِمْ } والمراد به: يوم القيامة. وقرأ الحسن البصري: يوم يدعو بالياء { كُلُّ } بالنصب. وقرأ أبو عمران الجوني: يوم يدعى بياء مرفوعة، وفتح العين، وبعدها ألف، كل بالرفع. وفي المراد بإمامهم أربعة أقوال. أحدها: أنه رئيسهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وروى عنه سعيد بن جبیر أنه قال: إمام هدى أو إمام ضلالة. والثاني: عملهم، رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وأبو العالية. والثالث: نبيهم، قاله أنس بن مالك، وسعيد بن جبیر، وقتادة، ومجاهد في رواية.

والرابع: كتابهم قاله عكرمة، ومجاهد في رواية. ثم فيه قولان. أحدهما: أنه كتابهم الذي فيه أعمالهم، قاله قتادة، ومقاتل. والثاني: كتابهم الذي أنزل عليهم، قاله الضحاك، وابن زيد. فعلى القول الأول يقال: يا متبعي موسى، يا متبعي عيسى، يا متبعي محمد؛ ويقال: يا متبعي رؤساء الضلالة. وعلى الثاني: يا من عمل كذا وكذا. وعلى الثالث: يا أمة موسى، يا أمة عيسى، يا أمة محمد. وعلى الرابع: يا أهل التوراة، يا أهل الإنجيل، يا أهل القرآن. أو يا صاحب الكتاب الذي فيه عمل كذا وكذا.

قوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ} معناها: يقرؤون حسناتهم، لأنهم أخذوا كتبهم بأيمانهم.

قوله تعالى: {وَلَا يُظْلَمُونَ قَتِيلًا} أي: لا ينقصون من ثوابهم بقدر الفتيل، وقد بيناه في [سورة النساء 49].

قوله تعالى: {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى} قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: أعمى فهو في الآخرة أعمى مفتوحتي الميم. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم بكسر الميمين. وقرأ أبو عمرو: في هذه أعمى بكسر الميم، فهو في الآخرة أعمى بفتحها.

وفي المشار إليها ب هذه قولان.

أحدهما: أنها الدنيا، قاله مجاهد. ثم في معنى الكلام خمسة أقوال.

أحدها: من كان في الدنيا أعمى عن معرفة قدرة الله في خلق الأشياء،

فهو عما وصف له في الآخرة أعمى، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: من كان في الدنيا أعمى بالكفر، فهو في الآخرة أعمى، لأنه في الدنيا تقبل توبته، وفي الآخرة لا تقبل، قاله الحسن.

والثالث: من عمى عن آيات الله في الدنيا، فهو عن الذي غيب عنه من أمور الآخرة أشد عمى.

والرابع: من عمى عن نعم الله التي بينها في قوله: {رَبُّكُمْ لِيَذِيَ يُزْجِي لَكُمْ لِقَلْكَ فِي لِبْحَرِ} إلى قوله: {تَفْضِيلًا} فهو في الآخرة أعمى عن رشاده وصلاحه، ذكرهما ابن الأنباري.

والخامس: من كان فيها أعمى عن الحجة، فهو في الآخرة أعمى عن الجنة، قاله أبو بكر الوراق.

والثاني: أنها النعم. ثم في الكلام قولان. أحدهما: من كان أعمى عن النعم

التي ترى وتشاهد، فهو في الآخرة التي لم تر أعمى، رواه عكرمة عن ابن

عباس. والثاني: من كان أعمى عن معرفة حق الله في هذه النعم المذكورة

في قوله: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} ولم يؤد شكرها، فهو فيما بينه وبين الله

مما يتقرب به إليه أعمى {وَأَضَلُّ سَبِيلًا}، قاله السدي. قال أبو علي

الفارسي: ومعنى قوله: {فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى} أي: أشد عمى، لأنه كان في

الدنيا يمكنه الخروج عن عماه بالاستدلال، ولا سبيل له في الآخرة إلى الخروج

من عماه. وقيل معنى العمى في الآخرة: أنه لا يهتدي إلى طريق الثواب، وهذا كله من عمى القلب.

فإن قيل: لم قال: {فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى} ولم يقل: أشد عمى، لأن العمى

خلقة بمنزلة الحمرة، والزرقة، والعرب تقول: ما أشد سواد زيد، وما أبيض

زرقة عمرو، وقلما يقولون: ما أسود زيدا، وما أزرق عمرا؟

فالجواب: أن المراد بهذا العمى عمى القلب، وذلك يتزايد ويحدث منه شيء بعد شيء، فيخالف الخلق اللازمة التي لا تزيد، نحو عمى العين، والبياض، والحمرة، ذكره ابن الأنباري.

{ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنْ لِيذَى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَتُنْفِرَى عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَاتَخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ تَبَسُّوكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَادَّقَتْكَ فِئَابُ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ لِمَمَاتٍ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُوا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا }

قوله تعالى: { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ } في سبب نزولها أربعة أقوال.

أحدها: أن وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: متعنا باللات سنة، وحرّم وادينا كما حرمت مكة، فأبى ذلك، فأقبلوا يكثرون

مسألتهم، وقالوا: إنا نحب أن تعرف العرب فضلنا عليهم، فان خشيت أن يقول العرب: أعطيتهم ما لم تعطنا، فقل: الله أمرني بذلك؛ فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم [عنهم]. وداخلهم الطمع، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس. وروى عطية عن ابن عباس أنهم قالوا: أجلنا سنة، ثم نسلم ونكسر أصنامنا، فهم أن يؤجلهم، فنزلت هذه الآية.

والثاني: أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: لا نكف عنك إلا بأن تلم بالهتنا، ولو بأطراف أصابعك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما علي لو فعلت والله يعلم إنني لكاره؟ فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن جبير، وهذا باطل لا يجوز أن يظن برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا ما ذكرنا عن عطية من أنه هم أن ينظرهم سنة، وكل ذلك محال في حقه وفي حق الصحابة أنهم روي عنه.

والثالث: أن قريشاً خلوا برسول الله ليلة إلى الصباح يكلمونه ويفخمونه،

ويقولون: أنت سيدنا وابن سيدنا، وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، ونزلت هذه الآية، قاله قتادة.

والرابع: أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: اطرّد عنك سقاط

الناس، ومواليهم، وهؤلاء الذين رآحتهم رائحة الضأن، وذلك أنهم كانوا يلبسون الصوف، حتى نجالسك ونسمع منك، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل ما يستدعي به إسلامهم، فنزلت هذه الآيات، حكاها الزجاج؛

قال: ومعنى الكلام: كادوا يفتنونك، ودخلت إن واللام للتوكيد. قال المفسرون: وإنما قال يفتنونك، لأن في إعطائهم ما سألوا مخالفة لحكم القرآن.

قوله تعالى: { لَتُنْفِرَى } أي: لتخلق { عَلَيْنَا غَيْرُهُ } وهو قولهم: قل الله أمرني بذلك، { وَإِذَا } لو فعلت ذلك { لَاتَخَذُوكَ خَلِيلًا } أي: والوك وصافوك.

قوله تعالى: { وَلَوْ لَا أَن تَبَيَّنَكَ } على الحق، لعصمتنا إياك { لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ } أي: هممت وقاربت أن تميل إلى مرادهم { شَيْئًا قَلِيلًا } قال ابن عباس: وذلك حين سكت عن جوابهم، والله أعلم بنيته. وقال ابن الأنباري: الفعل في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم، وفي الباطن للمشركين، وتقديره: لقد كادوا يركنونك إليهم، وينسبون إليك ما يشتهونه مما تكرهه، فنسب الفعل إلى غير فاعله عند أمن اللبس، كما يقول الرجل للرجل: كدت تقتل نفسك اليوم، يريد: كدت تفعل فعلاً يقتلك غيرك من أجله؛ فهذا من المجاز والاتساع وشبيه بهذا قوله: { فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة: 132]. وقول القائل: لا أرينك في هذا الموضوع.

قوله تعالى: { إِذَا لَادَقْتِكَ } المعنى: لو فعلت ذلك الشيء القليل { إِذَا لَادَقْتِكَ ضِعْفَ } أي: ضعف عذاب الحياة { وَضِعْفَ } عذاب { لِمَمَاتٍ }، ومثله قول الشاعر:

[نبئت أن النار بعدك أوقدت] واستب بعدك يا كليب المجلس

أي: أهل المجلس. وقال ابن عباس: ضعف عذاب الدنيا والآخرة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوماً، ولكنه تخويف لأمته، لئلا يركن أحد من المؤمنين إلى أحد من المشركين في شيء من أحكام الله وشرائعه. قوله تعالى: { وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ } في سبب نزولها قولان. أحدهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة، حسدته اليهود على مقامه بالمدينة، وكرهوا قربه، فأتوه، فقالوا: يا محمد أنبي أنت؟ قال: نعم، قالوا: فوالله لقد علمت ما هذه بأرض الأنبياء، وإن أرض الأنبياء الشام، فإن كنت نبياً فائت الشام، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشخص عن المدينة، فنزلت هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن غنم: لما قالت له اليهود هذا: صدق ما قالوا، وغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك، نزلت هذه الآية.

والثاني: أنهم المشركون أهل مكة هموا بإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة، فأمره الله بالخروج، وأنزل هذه الآية إخباراً عما هموا به، قاله الحسن، ومجاهد. وقال قتادة: هم أهل مكة بإخراجه من مكة، ولو فعلوا ذلك ما نواظروا، ولكن الله كفهم عن إخراجه حتى أمره بالخروج. وقيل: ما لبثوا بعد ذلك حتى بعث الله عليهم القتل ببدر. فعلى القول الأول، المشار إليهم، اليهود، والأرض: المدينة. وعلى الثاني: هم المشركون، والأرض: مكة. وقد

ذكرنا معنى الاستفزاز آنفا [الاسراء: 64]، وقيل: المراد به هاهنا: القتل، ليخرجه من الأرض كلها؛ روي عن الحسن.

قوله تعالى: {وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ} قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: خلفك. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: خلافيك. قال الأخفش خلافيك في معنى خلفك، والمعنى: لا يلبثون بعد خروجك {إِلَّا قَلِيلًا} أي: لو أخرجوك لاستأصلناهم بعد خروجك بقليل، وقد جازاهم الله على ما هموا به، فقتل صناديد المشركين ببدر، وقتل من اليهود بني قريظة، وأجلى النضير. وقال ابن الأنباري: معنى الكلام، لا يلبثون على خلفك ومخالفتك، فسقط حرف الخفض. وقرأ أبو رزين، وأبو المتوكل: خلفك بضم الخاء، وتشديد اللام، ورفع الفاء.

قوله تعالى: {سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا} قال الفراء: نصب السنة على العذاب المضمرة، أي: يعذبون كسنتنا فيمن أرسلنا. وقال الأخفش: المعنى: سنه سنة. وقال الزجاج: انتصب بمعنى لا يلبثون وتأويله: إنا سننا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك أنهم إذا أخرجوا نبيهم أو قتلوه، لم يلبث العذاب أن ينزل بهم. {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَى لَيْلٍ وَقُرْآنَ لَفَجْرِ} كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنْ لَيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ لِبَطْلٍ إِنَّ لِبَطْلٍ كَانَ زَهُوقًا} قوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلَاةَ} أي: أدها {لِذُلُوكِ الشَّمْسِ} أي: عند دلوها.

وذكر ابن الأنباري في اللام قولين. أحدهما: أنها بمعنى في. والثاني: أنها مؤكدة، كقوله: {رَدِفَ لَكُمْ} [النمل: 72]. وقال أبو عبيدة: دلوها: من عند زوالها إلى أن تغيب. وقال الزجاج: ميلها وقت الظهيرة دلوها، وميلها للغروب دلوها. وقال الأزهري: معنى الدلوها في كلام العرب: الزوال، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار: دالكة، وإذا أفلت: دالكة، لأنها في الحالين زائلة. وللمفسرين في المراد بالدلوها هاهنا قولان.

أحدهما: أنه زوالها نصف النهار. روي جابر بن عبد الله قال: دعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شاء من أصحابه، فطعموا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: اخرج يا أبا بكر فهذا حيث دلكت الشمس؛ وهذا قول ابن عمر، وأبي برزة، وأبي هريرة، والحسن، والشعبي، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعبيد بن عمير، وقتادة، والضحاك، ومقاتل، وهو اختيار الأزهري. قال الأزهري: لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس، فيكون المعنى: أقم الصلاة من وقت زوال

الشمس إلى غسق الليل، فيدخل فيها الأولى، والعصر، وصلاتا غسق الليل، وهما العشاءان، ثم قال: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ}، فهذه خمس صلوات. والثاني: أنه غروبها، قاله ابن مسعود، والنخعي، وابن زيد، وعن ابن عباس كالقولين، قال الفراء: ورأيت العرب تذهب في الدلوك إلى غيبوبة الشمس، وهذا اختيار ابن قتيبة، قال: لأن العرب تقول: ذلك النجم: إذا غاب؛ قال ذو الرمة:

مصايح ليست باللواتي تقودها نجوم ولا بالآفلات الدوالك

وتقول في الشمس: دلكت براح،

يريدون: غربت، والناظر قد وضع كفه على حاجبه ينظر إليها، قال الشاعر: والشمس قد كادت تكون دنفا أدفعها بالراح كي تزحلفا

فشبهها بالمريض [في] الدنف، لأنها قد همت بالغروب كما قارب الدنف الموت، وإنما ينظر إليها من تحت الكف ليعلم كم بقي لها إلى أن تغيب، ويتوقى الشعاع بكفه. فعلى هذا المراد، بهذه الصلاة: المغرب. فأما غسق الليل، فظلامه.

وفي المراد بالصلاة المتعلقة بغسق الليل ثلاثة أقوال.

أحدها: العشاء، قاله ابن مسعود. والثاني: المغرب، قاله ابن عباس. قال القاضي أبو يعلى: فيحتمل أن يكون المراد بيان وقت المغرب، أنه من غروب الشمس إلى غسق الليل. والثالث: المغرب والعشاء، قاله الحسن. قوله تعالى: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} المعنى: وأقم قراءة الفجر. قال المفسرون: المراد به: صلاة الفجر قال الزجاج: وفي هذا فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة، حين سميت الصلاة قرآنا. قوله تعالى: {إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تشهد ملائكة الليل، وملائكة النهار.

قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ} قال ابن عباس: فصل بالقرآن. قال مجاهد، وعلقمة، والأسود: التهجد بعد النوم. قال ابن قتيبة: تهجدت: سهرت، وهجدت: نمت. وقال ابن الأنباري: التهجد هاهنا بمعنى: التيقظ والسهر، واللغويون يقولون: هو من حروف الأضداد؛ يقال للنائم: هاجد ومتهجد، وكذلك للساهر، قال النابغة:

ولو انها عرضت لأشمط راهب عبد الآله ضرورة متهجد
لرنا لبهجتها وحسن حديثها ولخاله رشدا وإن لم يرشد

يعني بالمتهجد: الساهر، وقال لييد:
قال هجدنا فقد طال السرى [وقدرنا إن خنا الدهر غفل]

أي: نومنا. وقال الأزهري: المتهجد: القائم إلى الصلاة من النوم. وقيل له:
متهجد، لإلقائه الجود عن نفسه، كما يقال: تخرج وتأثم.
قوله تعالى: { تَافِلَةٌ لَّكَ } النافلة في اللغة: ما كان زائداً على الأصل.
وفي معنى هذه الزيادة في حقه قولان.

أحدهما: أنها زائدة فيما فرض عليه،
فيكون المعنى: فريضة عليك، وكان قد فرض عليه قيام الليل، هذا قول ابن
عباس، وسعيد بن جبير.

والثاني: أنها زائدة على الفرض، وليست فرضاً، فالمعنى: تطوعاً وفضيلة.
قال أبو أمامة، والحسن، ومجاهد: إنما النافلة للنبي صلى الله عليه وسلم
خاصة. قال مجاهد: وذلك أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما زاد
على فرضه فهو نافلة له وفضيلة، وهو لغيره كفارة. وذكر بعض أهل العلم أن
صلاة الليل كانت فرضاً عليه في الابتداء، ثم رخص له في تركها، فصارت
نافلة. وذكر ابن الأنباري في هذا قولين.

أحدهما: يقارب ما قاله مجاهد، فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
إذا تنفل لا يقدر له أن يكون بذلك ماحياً للذنوب، لأنه قد غفر له ما تقدم من
ذنبه وما تأخر، وغيره إذا تنفل كان راجياً، ومقدراً محو السيئات عنه بالتنفل،
فالنافلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم زيادة على الحاجة، وهي لغيره
مفتقر إليها، ومأمول بها دفع المكروه. والثاني: أن النافلة للنبي صلى الله
عليه وسلم وأمته، والمعنى: ومن الليل فتهدوا به نافله لكم، فخطب النبي
صلى الله عليه وسلم بخطاب أمته.

قوله تعالى: { عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ } عسى من الله واجبه، ومعنى يبعثك
يقيمك { مَقَامًا مَّحْمُودًا } وهو الذي يحمده لأجله جميع أهل الموقف. وفيه
قولان.

أحدهما: أنه الشفاعة للناس يوم القيامة، قاله ابن مسعود، وحذيفة بن اليمان،
وابن عمر، وسلمان الفارسي، وجابر بن عبد الله، والحسن، وهي رواية بن أبي
نجيح عن مجاهد.

والثاني: يجلسه على العرش يوم القيامة. روى أبو وائل عن عبد الله أنه قرأ
هذه الآية، وقال: يقعه على العرش، وكذلك روى الضحاك عن ابن عباس،
وليث عن مجاهد.

قوله تعالى: { وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ } وقرأ الحسن، وعكرمة، والضحاك، وحميد بن قيس، وابن أبي عبيدة بفتح الميم في مدخل ومخرج. قال الزجاج: المدخل، بضم الميم: مصدر أدخلته مدخلاً، ومن قال: مدخل صدق، فهو على أدخلته، فدخل مدخل صدق، وكذلك شرح مخرج مثله. وللمفسرين في المراد بهذا المدخل والمخرج أحد عشر قولاً.

أحدها: أدخلني المدينة مدخل صدق، وأخرجني من مكة مخرج صدق، روى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، ثم أمر بالهجرة، فنزلت عليه هذه الآية. وإلى هذا المعنى ذهب الحسن في رواية سعيد بن جبير، وقتادة، وابن زيد.

والثاني: أدخلني القبر مدخل صدق، وأخرجني منه مخرج صدق، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أدخلني المدينة، وأخرجني إلى مكة، يعني: لفتحها، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والرابع: أدخلني مكة مدخل صدق، وأخرجني منها مخرج صدق، فخرج منها أمنا من المشركين، ودخلها ظاهراً عليها يوم الفتح، قاله الضحاك. والخامس: أدخلني مدخل صدق الجنة، وأخرجني مخرج صدق من مكة إلى المدينة، رواه قتادة عن الحسن.

والسادس: أدخلني في النبوة والرسالة، وأخرجني منها مخرج صدق، قاله مجاهد، يعني: أخرجني مما يجب علي فيها.

والسابع: أدخلني في الإسلام، وأخرجني منه، قاله أبو صالح؛ يعني: من أداء ما يجب علي فيه إذا جاء الموت.

والثامن: أدخلني في طاعتك، وأخرجني منها، أي: سالماً غير مقصر في أدائها، قاله عطاء.

والتاسع: أدخلني الغار، وأخرجني منه، قاله محمد بن المنكدر.

والعاشر: أدخلني في الدين، وأخرجني من الدنيا وأنا علي الحق، ذكره الزجاج. والحادي عشر: أدخلني مكة، وأخرجني إلى حنين، ذكره أبو سليمان

الدمشقي.

وأما إضافة الصدق إلى المدخل والمخرج، فهو مدح لهما. وقد شرحنا هذا

المعنى في سورة [يونس: 2]. قوله تعالى: { وَجَعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ } أي: من عندك { سُلْطَانًا } وفيه ثلاثة

أقوال.

أحدها: أنه تسلط على الكافرين بالسيف، وعلى المنافقين بإقامة الحدود، قاله الحسن.

بحقوق النعم، وقيل: تعظم وتكبر. {وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ} أي: نزل به البلاء والفقر {كَانَ} أي: قنوطاً شديداً اليأس، لا يرجو فضل الله. قوله تعالى: {يَتُوسَّأُ قُلُّ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} فيها ثلاثة أقوال. أحدها: على ناحيته، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير. قال الفراء: الشاكلة: الناحية، والجديلة، والطريقة، سمعت بعض العرب يقول: وعبد الملك إذ ذاك على جديله، وابن الزبير على جديله، يريد: على ناحيته. وقال أبو عبيدة: على ناحيته وخليقته. وقال ابن قتيبة: على خليقته وطبيعته، وهو من الشكل. يقال: لست على شكلي، ولا شاكلي. وقال الزجاج: على طريقته، وعلى مذهبه. والثاني: على نيته؛ قاله الحسن، ومعاوية بن قرة. وقال الليث: الشاكلة من الأمور: ما وافق فاعله.

والثالث: على دينه، قاله ابن زيد. وتحرير المعنى: أن كل واحد يعمل على طريقته التي تشاكل أخلاقه، فالكافر يعمل ما يشبه طريقته من الإعراض عند النعم واليأس عند الشدة، والمؤمن يعمل ما يشبه طريقته من الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء، والله يجازي الفريقين. وذكر أبو صالح عن ابن عباس: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: {وَ قُلُّوا لِمُشْرِكِينَ حَيْثُ} [التوبة: 5]، وليس بشيء.

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ عِلْمٍ إِلَّا قَلِيلاً} قوله تعالى: {سَبِيلاً وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} في سبب نزولها قولان. أحدهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بناس من اليهود، فقالوا: سلوه عن الروح؟ فقال بعضهم: لا تسألوه، فيستقبلكم بما تكرهون. فأتاه نفر منهم، فقالوا: يا أبا القاسم: ما تقول في الروح؟ فسكت، ونزلت هذه الآية، قاله ابن مسعود.

والثاني: أن اليهود قالت لقريش: سلوا محمداً عن ثلاث فإن أخبركم عن اثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي؛ سلوه عن فتية فقدوا، وسلوه عن ذي القرنين، وسلوه عن الروح. فسألوه عنها ففسر لهم أمر الفتية، في الكهف وفسر لهم قصة ذي القرنين، وأمسك عن قصة الروح، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس، وفي المراد بالروح هاهنا ستة أقوال.

أحدها: أنه الروح الذي يحيا به البدن، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس. وقد اختلف الناس في ماهية الروح، ثم اختلفوا هل الروح النفس، أم هما شيان فلا يحتاج إلى ذكر اختلافهم لأنه لا برهان على شيء من ذلك وإنما هو شيء أخذوه عن الطب والفلاسفة؟ فأما السلف، فإنهم أمسكوا عن ذلك، لقوله تعالى: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}، فلما رأوا أن القوم سألوها عن الروح

فلم يجابوا، ولوحي ينزل، والرسول حي، علموا أن السكوت عما لم يحط بحقيقة علمه أولى.

والثاني: أن المراد: بهذا الروح ملك من الملائكة على خلقه هائلة، روي عن علي عليه السلام، وابن عباس، ومقاتل.

والثالث: أن الروح: خلق من خلق الله عز وجل صورهم على صور بني آدم، رواه مجاهد عن ابن عباس.

والرابع: أنه جبريل عليه السلام، قاله الحسن، وقتادة.

والخامس: أنه القرآن، روي عن الحسن أيضاً.

والسادس: أنه عيسى بن مريم، حكاه الماوردي. قال أبو سليمان الدمشقي:

قد ذكر الله تعالى الروح في مواضع من القرآن، فغالب ظني أن الناقلين نقلوا

تفسيره من موضعه إلى موضع لا يليق به، وظنوه مثله، وإنما هو الروح الذي

يحيى به ابن آدم. وقوله: { مِنْ أَمْرِ رَبِّي } أي: من عمله الذي منع إن يعرفه

أحد. قوله تعالى: { وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ عِلْمٍ إِلَّا قَلِيلًا } في المخاطبين بهذا

قولان.

أحدهما: أنهم اليهود، قاله الأكثرون.

والثاني: أنهم جميع الخلق، علمهم قليل بالإضافة إلى علم الله عز وجل، ذكره الماوردي.

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين قوله تعالى: { وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ

فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا } [البقرة: 269]؟

فالجواب: أن ما أوتيته الناس من العلم وإن كان كثيراً، فهو بالإضافة إلى علم الله قليل.

{ وَلَئِن شِئْنَا لَنُدْهِبَنَّ بِرِّ لِّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً

مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَثِيرًا }

قوله تعالى: { وَلَئِن شِئْنَا لَنُدْهِبَنَّ بِرِّ لِّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } قال الزجاج: المعنى: لو

شئنا لمجوناه من القلوب والكتب، حتى لا يوجد له أثر، { ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا

وَكِيلًا } أي: لا تجد من يتوكل [علينا] في رد شيء منه، { إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ } {

هذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن الله رحمتك فأثبت ذلك في قلبك

وقلوب المؤمنين. وقال ابن الأنباري: المعنى: لكن رحمة من ربك تمنع من أن

تسلب القرآن، وكان المشركون قد خاطبوا نساءهم من المسلمين في

الرجوع إلى دين آبائهم، فهددهم الله عز وجل بسلب النعمة، فكان ظاهر

الخطاب للرسول، ومعنى التهديد للأمة. وقال أبو سليمان: ثم لا تجد لك به أي:

بما نفعله بك، من إذهاب ما عندك وكيلاً يدفعنا عما نريده بك. وروي [عن] عبد

الله ابن مسعود أنه قال: يسرى على القرآن في ليلة واحدة، فيجيء جبريل

من جوف الليل، فيذهب به من صدورهم ومن بيوتهم، فيصبحون لا يقرؤون آية ولا يحسنونها. ورد أبو سليمان الدمشقي صحة هذا الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام: إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً، وحديث ابن مسعود مروى من طرق حسان، فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أراد بالعلم ما سوى القرآن، فإن العلم ما يزال ينقرض حتى يكون رفع القرآن آخر الأمر. { قُلْ لَئِنِ جُمِعَتِ الْإِنْسُ وَ لِجِنَّ عَلٰى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا لِقُرْءَانٍ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } {

قوله تعالى: { قُلْ لَئِنِ جُمِعَتِ الْإِنْسُ وَ لِجِنَّ } قال المفسرون: هذا تكذيب للنضر بن الحارث حين قال: لو شئنا لقلنا مثل هذا. والمثل الذي طلب منهم: كلام له نظم كنظم القرآن، في أعلى طبقات البلاغة والظهير: المعين: { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا لِقُرْءَانٍ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ قَابِي أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَّهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا رَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِهٍ وَ لِمَلِيكَةٍ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نُّقْرَهُ قُلْ سُبْحٰنَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا } {

قوله تعالى: { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا لِقُرْءَانٍ } قد فسرناه في هذه السورة [الإسراء: 41]، والمعنى: من كل مثل من الأمثال التي يكون بها الاعتبار { قَابِي أَكْثَرُ النَّاسِ } يعني أهل مكة { إِلَّا كُفُورًا } أي: جحودا للحق وانكاراً.

قوله تعالى: { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا } سبب نزول هذه الآية وما يتبعها، أن رؤساء قريش، كعتبة، وشيبة، وأبي جهل، وعبد الله بن أبي أمية، والنضر بن الحارث، في آخرين، اجتمعوا عند الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذورا فيه، فبعثوا إليه: إن أشرف قومك قد اجتمعوا ليكلموك، فجاءهم سريعاً، وكان حريصاً على رشدهم، فقالوا: يا محمد، إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فإن كنت إنما جئت بهذا لتطلب مالاً، جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سودناك علينا، وإن كان هذا الرئي الذي يأتيك قد غلب عليك، بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن تقبلوا مني [ما جئكم به]، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما

عرضنا، فقد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلاداً ولا أشد عيشاً منا، سل لنا ربك يسير لنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، ويجري لنا أنهاراً، ويبعث من مضي من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسأله عما تقول: أحق هو؟ فإن فعلت صدقناك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بهذا بعثت، وقد أبلغتكم ما أرسلت به؛ قالوا: فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك، وسله أن يجعل لك جناناً، وكنوزاً، وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك؛ قال: ما أنا بالذي يسأل ربه هذا؛ قالوا: فأسقط السماء [علينا] كما زعمت بأن ربك إن شاء فعل؛ فقال: ذلك إلى الله عز وجل؛ فقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً، وقال عبد الله بن أبي أمية: لا أؤمن لك حتى تتخذ إلى [السماء] سلماً، وترقى فيه وأنا أنظر، وتأتي بنسخة منشورة معك، ونفر من الملائكة يشهدون لك، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حزينا لما رأى من مبادئهم إياه، فأنزل الله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ} الآيات، رواه عكرمة عن ابن عباس.

قوله تعالى: {حَتَّى تَفْجَرَ} قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: حتى تفجر بضم التاء، وفتح الفاء، وتشديد الجيم مع الكسرة. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: حتى تفجر بفتح التاء، وتسكين الفاء، وضم الجيم مع التخفيف. فمن ثقل، أراد كثرة الانفجار من الينبوع، ومن خفف، فلأن الينبوع واحد. فأما الينبوع: فهو عين ينبع الماء منها؛ قال أبو عبيدة: هو يفعل، من ينبع الماء، أي: ظهر وفار.

قوله تعالى: {أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ} أي: بستان {فَتَفَجَّرَ لِأَنْهَارٍ} أي: تفتحها وتجريها {خِلَالَهَا} أي: وسط تلك الجنة.

قوله تعالى: {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ} وقرأ مجاهد، وأبو مجلز، وأبو رجاء، وحميد، والجحدري: أو تسقط بفتح التاء، ورفع القاف السماء بالرفع.

قوله تعالى: {كِسْفًا} قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: كسفا بتسكين السين في جميع القرآن إلا في [الروم: 48] فإنهم حركوا السين. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم: بتحريك السين في الموضعين، وفي باقي القرآن بالتسكين. وقرأ ابن عامر ها هنا بفتح السين، وفي باقي القرآن بتسكينها. قال الزجاج: من قرأ كسفا بفتح السين، جعلها جمع كسفة، وهي: القطعة، ومن قرأ كسفا بتسكين السين، فكأنهم قالوا: أسقطها طبقاً علينا؛ واشتقاقه من كسفت الشيء: إذا غطيته، يعنون: أسقطها علينا قطعة واحدة. وقال ابن الأنباري: من سكن قال: تأويله: سترأ وتغطية: من قولهم: قد انكسفت الشمس: إذا غطاها ما يحول بين الناظرين إليها وبين أنوارها.

قوله تعالى: { أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَ لِمَلِيكَةِ قَبِيلًا } فيه ثلاثة أقوال. أحدها: عياناً، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال قتادة، وابن جريج، ومقاتل، وقال أبو عبيدة: معناه: مقابلة، أي: معاينة، وأنشد للأعشى: نصالحك حتى تبوؤوا بمثلها كصرخة حبلى يسرتها قبيلها

أي: قابلتها. ويروى: وجهتها [يعني بدل: يسرتها]. والثاني: كفيلاً أنك رسول الله، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء، قال: القبيل، والكفيل، والزعيم، سواء؛ تقول: قبلت، وكفلت، وزعمت. والثالث: قبيلة قبيلة، كل قبيلة على حدتها، قاله الحسن، ومجاهد. فأما الزخرف، فالمراد به الذهب، وقد شرحنا أصل هذه الكلمة في [يونس: 24]، وترقى: بمعنى تصعد؛ يقال: رقيت أرقى رقياً. قوله تعالى: { حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا } قال ابن عباس: كتاباً من رب العالمين إلى فلان بن فلان يصبح عند كل واحد منا يقرؤه. قوله تعالى: { قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي } قرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: قل. وقرأ ابن كثير، وابن عامر: قال، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة والشام، { هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا }، أي: أن هذه الأشياء ليست في قوى البشر.

فإن قيل: لم اقتصر على حكاية قالوا من غير إيضاح الرد؟ فالجواب: أنه لما خصهم بقوله تعالى: { قُلْ لئنِ جُمِعَتِ الْإِنْسُ وَ لجنُ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا لَفُرْعَانِ } فلم يكن في وسعهم، عجزهم، فكأنه يقول: قد أوضحت لكم بما سبق من الآيات ما يدل على نبوتي، ومن ذلك التحدي بمثل هذا القرآن، فأما عنيتكم فليس في وسعي، ولأنهم ألحوا عليه في هذه الأشياء، ولم يسألوه أن يسأل ربه، فرد قولهم بكونه بشيراً، فكفي ذلك في الرد. { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ لهُدًى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا }

قوله تعالى: { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا } قال ابن عباس: يريد أهل مكة. قال المفسرون: ومعنى الآية: وما منعهم من الإيمان { إِذْ جَاءَهُمْ لهُدًى } وهو البيان والإرشاد في القرآن { إِلَّا أَنْ قَالُوا } [أي: إلا] قولهم في التعجب والإنكار: { أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا }؟ وفي الآية اختصار، تقديره: هلا بعث الله ملكاً رسولاً، فأجيبوا على ذلك بقوله تعالى: { قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ }

يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ { أي: مستوطنين الأرض. ومعنى الطمأنينة: السكون؛ والمراد من الكلام أن رسول كل جنس ينبغي أن يكون منهم. قوله تعالى: { قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا } قد فسرناه في [الرعد: 43] { إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } قال مقاتل: حين اختص الله مجمداً بالرسالة. { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ لِلَّهِ لِيُذِيَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ قَابِئِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا * قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا }

قوله تعالى: { مَنْ يَهْدِي اللَّهُ } قرأ نافع، وأبو عمرو بالياء في الوصل، وحذفاها في الوقف. وأثبتها يعقوب في الوقف، وحذفها الأكثرون في الحالتين. من يهد الله قال ابن عباس: من يرد الله هداه { اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ } يهدونهم. قوله تعالى: { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ } فيه ثلاثة أقوال. أحدها: أنه يمشيهم على وجوههم، وشاهده ما روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أنس بن مالك أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: إن الذي أمشاه على رجله في الدنيا، قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة. والثاني: أن المعنى: ونحشرهم مسحوبين على وجوههم، قاله ابن عباس. والثالث: نحشرهم مسرعين مبادرين، فعبر بقوله: على وجوههم عن الإسراع، كما تقول العرب: كما تقول العرب: قد مر القوم على وجوههم: إذا أسرعوا، قاله ابن الأنباري.

قوله تعالى: { عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا } فيه قولان. أحدهما: عمياً لا يرون شيئاً يسرهم، وبكماً لا ينطقون بحجة، وصماً لا يسمعون شيئاً يسرهم، قاله ابن عباس. وقال في رواية: عمياً عن النظر إلى ما جعل لأوليائه، وبكماً عن مخاطبة الله، وصماً عما مدح به أوليائه، وهذا قول الأكثرين.

والثاني: أن هذا الحشر في بعض أحوال القيامة بعد الحشر الأول. قال مقاتل: هذا يكون حين يقال لهم: { وَأَنْزَلْنَا فِيهَا } [المؤمنون: 108] فيصيرون عمياً بكماً صماً لا يرون ولا يسمعون ولا ينطقون بعد ذلك.

قوله تعالى: {كَلِمًا حَبَّتْ} قال ابن عباس: أي: سكنت. قال المفسرون: وذلك أنها تأكلهم، فإذا لم تبق منهم شيئاً وصاروا فحماً ولم تجد شيئاً تأكله، سكنت، فيعادون خلقاً جديداً، فتعود لهم. وقال ابن قتيبة: يقال: خبت النار: إذا سكن لهبها. فالهلب يسكن، والجمر يعمل، فإن سكن الالهب، ولم يطفأ الجمر، قيل: خمدت تخمد خموداً، فإن طفئت ولم يبق منها شيء، قيل: همدت تهمد هموداً. ومعنى {زِدْتَاهُمْ سَعِيرًا}: ناراً تتسعر، أي: تتلهب. وما بعد هذا قد سبق تفسيره [الأسراء: 49] إلى قوله: {قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} أي: على أن يخلقهم مرة ثانية، وأراد ب مثلهم إياهم، وذلك أن مثل الشيء مساو له، فجاز أن يعبر به عن نفس الشيء، يقال: مثلك لا يفعل هذا، أي: أنت، ومثله قوله: {فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ} [البقرة: 137]، وقد تمّ الكلام عند قوله: {مِثْلَهُمْ}، ثم قال: {وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ} يعني: أجل البعث {فَأَبَىٰ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا} أي: جحوداً بذلك الأجل. قوله تعالى: {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي} قال الزجاج: المعنى: لو تملكون أنتم، قال الملمس:

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي نصبت لهم فوق العرائن ميسما

المعنى: لو أراد غير أخوالي.

وفي هذه الخزائن قولان.

أحدهما: خزائن الأرزاق. والثاني: خزائن النعم، فيخرج في الرحمة قولان. أحدهما: الرزق. والثاني: النعمة. وتحريف الكلام لو ملكتم ما يملكه الله عز وجل لأمسكتكم عن الإنفاق خشية الفاقة. {وَكَانَ لِلْإِنْسَانِ} يعني: الكافر {قَتُورًا} أي: بخيلاً ممسكاً؛ يقال: قتر يقتر، وقتر يقتر: إذا قصر في الإنفاق. وقال الماوردي: لو ملك أحد من المخلوقين من خزائن الله تعالى، لما جاد كجود الله تعالى، لأمرين. أحدهما: أنه لا بد أن يمسك منه لنفقته ومنفعته. والثاني: أنه يخاف الفقر، والله تعالى منزه في جوده عن الحاليين. ثم إن الله تعالى ذكر إنكار فرعون آيات موسى، تشبيها بحال هؤلاء المشركين، فقال: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ} وفيها قولان. أحدهما: أنها بمعنى المعجزات والدلالات، ثم اتفق جمهور المفسرين على سبع آيات منها، وهي: يده، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، واختلفوا في الآيتين الأخرتين على ثمانية أقوال. أحدها: أنهما لسانه والبحر الذي فلق له، رواه العوفي عن ابن عباس؛ يعني بلسانه: أنه كان فيه عقدة فحلها الله تعالى له. والثاني: البحر والجبل الذي تتق فوقهم، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثالث: السنون ونقص الثمرات، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والشعبي، وعكرمة، وقتادة. وقال الحسن: السنون ونقص الثمرات آية واحدة.

والرابع: البحر والموت أرسل عليهم، قاله الحسن، ووهب.

والخامس: الحجر والبحر، قاله سعيد بن جبير.

والسادس: لسانه وإلقاء العصا مرتين عند فرعون، قاله الضحاك.

والسابع: البحر والسنون، قاله محمد بن كعب.

والثامن: ذكره [محمد بن اسحاق عن] محمد بن كعب أيضاً، فذكر السبع الآيات الأولى، إلا أنه جعل مكان يده البحر، وزاد الطمسة والحجر، يعني قوله: { طَمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ } [يونس: 88].

والثاني: أنها آيات الكتاب، روى أبو داود السجستاني من حديث صفوان ابن عسال، أن يهوديا قال لصاحبه: تعال حتى نسأل هذا النبي، فقال الآخر: لا تقل: إنه نبي، فإنه لو سمع ذلك، صارت له أربعة أعين؛ فأتياه، فسألاه عن تسع آيات بينات، فقال: لا تشركوا بالله شيئا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تنزوا، ولا تسرقوا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا بالبريء إلى السلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تقذفوا المحصنات، ولا تفروا من الزحف، وعليكم خاصة يهود ألا تعدوا في السبت، قال: فقبلا يده، وقال: نشهد أنك نبي.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ سَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يُمُوسَىٰ مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يُفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا * فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِّنِّي الْأَرْضَ فَأَعْرَفْنَاهُ و�هِنَ مَعَهُ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ سَكَنُوا الْأَرْضَ قَنَاطًا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جُنَّتَا بِكُمْ لَفِيحًا }

قوله تعالى: { وَ سَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } قرأ الجمهور: فاسأل على معنى الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وإنما أمر أن يسأل من آمن منهم عما أخبر [به] عنهم، ليكون حجة على من لم يؤمن منهم. وقرأ ابن عباس: فسأل بني إسرائيل [على معنى] الخبر عن موسى أنه سأل فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل. { فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ } أي: لأحسبك { إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا } وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: مخدوعاً، قاله ابن عباس. والثاني: مسحوراً، قد سحرت، قاله ابن السائب. والثالث: ساحراً، فوضع مفعولاً في موضع فاعل، هذا مروى عن الفراء وأبي عبيدة. فقال موسى: { لَقَدْ عَلِمْتُمَا } قرأ الجمهور بفتح التاء. وقرأ علي عليه السلام بضمها، وقال: والله ما علم عدو الله، ولكن موسى هو الذي علم، فبلغ ذلك ابن عباس، فاحتج بقوله تعالى: { وَجَحَدُوا بِهَا وَ سَتَّيْقَتْنَهَا }

أَنْفُسُهُمْ} [النمل: 14] واختار الكسائي وثلعب قراءة علي عليه السلام، وقد رويت عن ابن عباس، وأبي رزين، وسعيد بن جبير، وابن يعمر. واحتج من نصرها بأنه لما نسب موسى إلى أنه مسحور، أعلمه بصحة عقله بقوله: لقد علمت، والقراءة الأولى أصح، لاختيار الجمهور، ولأنه قد أبان موسى من المعجزات ما أوجب علم فرعون بصدقه، فلم يرد عليه إلا بالتعلل والمدافعة، فكأنه قال: لقد علمت بالدليل والحجة ما أنزل هؤلاء يعني الآيات. وقد شرحنا معنى البصائر في [الأعراف: 203] قوله تعالى: {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ} قال أكثر المفسرين: الظن هاهنا بمعنى العلم، على خلاف ظن فرعون في موسى، وسوى بينهما بعضهم، فجعل الأول بمعنى العلم أيضاً.

وفي المثبور ستة أقوال. أحدها: أنه الملعون، روه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثاني: المغلوب، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: الناقص العقل، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس. والرابع: المهلك، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة، وابن قتيبة. قال الزجاج: يقال: ثبر الرجل، فهو مثبور: إذا أهلك. والخامس: الهالك، قاله مجاهد. والسادس: الممنوع من الخير؛ تقول العرب: ما ثبرك عن هذا، أي: ما منعك، قاله الفراء. قوله تعالى: {فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ} يعني: فرعون أراد أن يستفز بني إسرائيل من أرض مصر. وفي معنى يستفزهم قولان. أحدهما: يستأصلهم، قاله ابن عباس.

والثاني: يستخفهم حتى يخرجوا، قاله ابن قتيبة. وقال الزجاج: جائز أن يكون استفزازهم إخراجهم منها بالقتل أو بالتنحية. قال العلماء: وفي هذه الآية تنبيه على نصره رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه لما خرج موسى فطلبه فرعون، هلك فرعون وملك موسى، وكذلك أظهر الله نبيه بعد خروجه من مكة حتى رجع إليها ظاهراً عليها.

قوله تعالى: {وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ} أي: من بعد هلاك فرعون {لِئِنِّي إِسْرَائِيلَ} وفيها ثلاث أقوال. أحدها: فلسطين والأردن، قاله ابن عباس. والثاني: أرض وراء الصين، قاله مقاتل. والثالث: أرض مصر والشام. قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ} يعني: القيامة {جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا} أي: جميعاً، قاله ابن عباس ومجاهد، وابن قتيبة. وقال الفراء: لفيفاً، أي: من هاهنا ومن هاهنا. وقال الزجاج: اللفيف: الجماعات من قبائل شتى.

{ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى حُكْمٍ وَتَرْسُلَهُ نَزِيلًا * قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَعَلَمٌ مِّنْ قَبْلِهِ إِذَا يُنزَلُ عَلَيْهِمْ يُخَرُّونَ لِلذِّقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخَرُّونَ لِلذِّقَانِ يَتَكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا }

قوله تعالى: { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ } الهاء كناية عن القرآن، والمعنى: أنزلنا القرآن بالأمر الثابت والدين المستقيم، فهو حق، ونزوله حق، وما تضمنه حق. وقال أبو سليمان الدمشقي: وبالحق أنزلناه أي: بالتوحيد، وبالحق نزل يعني: بالوعد والوعد، والأمر والنهي.

قوله تعالى: { وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ } قرأ علي عليه السلام، وسعد بن أبي وقاص، وأبي بن كعب، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو رزين، ومجاهد، والشعبي، وقتادة، والأعرج، وأبو رجاء، وابن محيصن: فرقناه بالتشديد. وقرأ الجمهور بالتخفيف.

فأما قراءة التخفيف، ففي معناها ثلاثة أقوال.

أحدها: بينا حلاله وحرامه، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: فرقنا فيه بين الحق والباطل، قاله الحسن.

والثالث: أحكمناه وفصلناه، كقوله تعالى: { فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ }

[الدخان: 4] قاله الفراء. وأما المشددة، فمعناها: أنه أنزل متفرقا، ولم ينزل

جملة واحدة. وقد بينا في أول كتابنا هذا مقدار المدة التي نزل فيها. قوله

تعالى: { لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى حُكْمٍ } قرأ أنس، والشعبي، والضحاك،

وقتادة، وأبو رجاء، وأبان عن عاصم، وابن محيصن: بفتح الميم؛ والمعنى: على

تؤدة وترسل ليتدبروا معناه.

قوله تعالى: { قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا } هذا تهديد لكفار [أهل] مكة، والهاء

كناية عن القرآن. { إِنَّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَعَلَمٌ } وفيهم ثلاثة أقوال.

أحدها: أنهم ناس من أهل الكتاب، قاله مجاهد.

والثاني: أنهم الأنبياء عليهم السلام، قاله ابن زيد.

والثالث: طلاب الدين، كابي ذر، وسلمان، وورقة بن نوفل، وزيد ابن عمرو،

قاله الواحدي.

وفي هاء الكناية في قوله:

{ مِّنْ قَبْلِهِ } قولان.

أحدهما: أنها ترجع إلى القرآن، والمعنى: من قبل نزوله.

والثاني: ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله ابن زيد. فعلى الأول {إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ} القرآن. وعلى قول ابن زيد {إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ} ما أنزل إليهم من عند الله.

قوله تعالى: {يَخْرُجُونَ لِلأَذْقَانِ} اللام هاهنا بمعنى على. قال ابن عباس: قوله للأذقان أي: للوجوه. قال الزجاج: الذي يخر وهو قائم، إنما يخر لوجهه، والذقن: مجتمع اللحيين، وهو عضو من أعضاء الوجه، فإذا ابتداء يخر، فأقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض الذقن. وقال ابن الأنباري: أول ما يلقى الأرض من الذي يخر قبل أن يصبوب جبهته ذقنه، فلذلك قال: للأذقان. ويجوز أن يكون المعنى: يخرن للوجوه، فاكتفى بالذقن من الوجه كما يكتفى بالبعض من الكل، وبالنوع من الجنس.

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا} نزهوا الله تعالى عن تكذيب المكذبين بالقرآن، وقالوا: {إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا} بإنزال القرآن وبعث محمد صلى الله عليه وسلم {لَمَفْعُولًا} واللام دخلت للتوكيد. وهؤلاء قوم كانوا يسمعون أن الله باعث نبيا من العرب، ومنزل عليه كتابا، فلما عاينوا ذلك، حمدوا الله تعالى على انجاز الوعد، {وَيَخْرُجُونَ لِلأَذْقَانِ} كرر القول ليدل على تكرار الفعل منهم. {وَيَزِيدُهُمْ حُشُوعًا} أي: يزيدهم القرآن تواضعا. وكان عبد الأعلى التيمي يقول: من أوتي من العلم ما لا يبكيه، لخليق أن لا يكون أوتي علما ينفعه، لأن الله تعالى نعت العلماء فقال: إن الذين أوتوا العلم... إلى

قوله: {قُلِ اذْعُوا لِلَّهِ أَوْ اذْعُوا لِلرَّحْمَنِ أَيًّا مَّا تَدْعُوا} قَلَهُ اَلْأَسْمَاءُ اَلْحُسَيْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * وَقُلِ اَلْحَمْدُ لِلَّهِ اَلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي اَلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَاوِيٌّ مِّنْ اَلدَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا} قوله تعالى: {قُلِ اذْعُوا لِلَّهِ أَوْ اذْعُوا لِلرَّحْمَنِ} الآية. هذه الآية نزلت على سببين. [نزل] أولها إلى قوله: {اَلْحُسَيْنَى} على سبب، وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تهجد ذات ليلة بمكة، فجعل يقول في سجوده: يا رحمن يا رحيم: فقال المشركون: كان محمد يدعو إليها واحدا، فهو الآن يدعو إلهين اثنين: الله، والرحمن، ما نعرف الرحمن إلا رحمن الإمامة، يعنون: مسيلمة، فأنزل الله هذه الآية، قاله ابن عباس.

والثاني: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب في أول ما أوحى إليه: باسمك اللهم، حتى نزل: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اَللَّهِ اَلرَّحْمَنِ اَلرَّحِيمِ} [النمل: 30] فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال مشركو العرب: هذا الرحيم نعرفه، فما الرحمن؟ فنزلت هذه الآية، قاله ميمون بن مهران.

والثالث: أن أهل الكتاب قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك.

فأما قوله: { وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ } فنزل على سبب، وفيه ثلاثة أقوال. أحدها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرفع صوته بالقرآن بمكة، فيسب المشركون القرآن و من أتى به، فخفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بعد ذلك حتى لم يسمع أصحابه، فأنزل الله تعالى: { وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ } أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، { وَلَا تُخَافُتْ بِهَا } عن أصحابك، فلا يسمعون، قاله ابن عباس.

والثاني: أن الأعرابي كان يجهر في التشهد ويرفع صوته، فنزلت هذه الآية، هذا قول عائشة.

والثالث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي بمكة عند الصفا، فجهر بالقرآن في صلاة الغداة، فقال أبو جهل: لا تفتخر على الله، فخفض النبي صلى الله عليه وسلم صوته، فقال أبو جهل للمشركين: ألا ترون ما فعلت بابن أبي كبشة؟ رددته عن قراءته، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل.

فأما التفسير، فقوله: { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ } المعنى: إن شئتم فقولوا: يا الله، وإن شئتم فقولوا: يارحمن، فإنهما يرجعان إلى واحد، { أَيَا مَّا تَدْعُوا } المعنى: أي أسماء الله تدعوا؛ قال الفراء: وما قد تكون صلة، كقوله: { عَمَّا قَلِيلٍ لِيُضِخَّنَّ تَدْمِيمِينَ } [المؤمنون: 40]، وتكون في معنى: أي معادة لما اختلف لفظهما.

قوله تعالى: { وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ } فيه قولان.

أحدهما: أنها الصلاة الشرعية. ثم في المراد بالكلام ستة أقوال.

أحدها: لا تجهر بقراءتك، ولا تخافت بها، فكانه نهي عن شدة الجهر بالقراءة، وشدة المخافتة، قاله ابن عباس. فعلى هذا في تسمية القراءة بالصلاة قولان. ذكرهما ابن الأنباري. أحدهما: أن يكون المعنى: فلا تجهر بقراءة صلاتك. والثاني: أن القراءة بعض الصلاة، فنابت عنها، كما قيل لعيسى: كلمة الله، لأنه بالكلمة كان.

والثاني: لا تصل مرعاة للناس، ولا تدعها مخافة الناس، قاله ابن عباس أيضاً.

والثالث: لا تجهر بالتشهد في صلاتك، روي عن عائشة في رواية، وبه قال ابن سيرين.

والرابع: لا تجهر بفعل صلاتك ظاهراً، ولا تخافت بها شديد الاستتار، قاله عكرمة.

والخامس: لا تحسن علانيتها، وتسيء سريرتها، قاله الحسن.
 والسادس: لا تجهر بصلاتك كلها، ولا تخافت بجمعها. فاجهر في صلاة الليل،
 وخافت في صلاة النهار، على ما أمرناك به، ذكره القاضي أبو يعلى. والقول
 الثاني: أن المراد بالصلاة: الدعاء، وهو قول عائشة، وأبي هريرة، ومجاهد.
 قوله تعالى: {وَلَا تُخَافِتْ بِهَا} المخافتة: الإخفاء، يقال: صوت خفيت. {وَأُتِيَ
 بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} أي: أسلك بين الجهر والمخافتة طريقاً. وقد روي عن ابن
 عباس أنه قال: نسخت هذه الآية بقوله: {لَقَوْلِ} [الأعراف: 205] وقال ابن
 السائب: نسخت بقوله: {فَوَطَّدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ} [الحجر: 94] وعلى التحقيق،
 وجود النسخ هاهنا بعيد.
 قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ} وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء،
 وطلحة بن مصرف: في الملك بكسر الميم، {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدَّلِّ} {
 قال مجاهد: لم يحالف أحداً، ولم يبتغ نصر أحد؛ والمعنى: أنه لا يحتاج إلى
 موالة أحد لذل يلحقه، فهو مستغن عن الولي والنصير.
 {وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا} أي: عظمه تعظيماً تاماً.